المقتطف

الجزء العاشر من المجلد الثالث والثلاثين

١ اكتوبر (تشرين الاول) سنة ١٩٠٨ — الموافق ٦ رمضان سنة ١٣٢٦

سكة الحجاز

لقينا بالامس ضابطاً من ضباط الجيش العثماني الذين اقاموا في اليمن سنين كثيرة فوصف لنا تلك البلاد وصفاً اقرب الى تخيُّلات الشعراء منهُ الى حقائق العلماء . ويظهر من اقوال الثقات الذين طافوا في جزيرة العرب من حدود اليمن وحضرموت جنوباً الى حدود مكة شمالاً بعيدين عن الساحل الغربي ان وصفهُ صحيح لا مبالغة فيهِ وان البلاد تشبه لبنان وسويسرا . جبال مرتفعة تجتذب الغيث من السحاب . وسهول منبسطة تكسوها الرياض والغياض باثواب قشاب . واودية منخفضة تجري في قلبها الغدران وتكتنفها الروابي والهضاب

جزيرة العرب اوسع بلدان الدولة العثمانية مساحتها مليون ميل مربع وقد يظن لاول وهلة انها كلها صحارٍ وقفار وجبال صخرية قاحلة كما يراها من يدخلها من ساحل البحر ولكن الذين تيسَّر لهم اختراقها والبحث فيها من اهل العلم والسياحة يقولون ان ثلثها صحارٍ لا تسكن وثلثاها اراضٍ زراعية خصيبة لا تعوزها الاَّ ايادي العمَّال ولكن القفار تحيط بها فيتوهَّم من يراها ولا يتخطاها ان البلاد كلها مثلها . ولقد احسن القس زويمر حيث قال ان بلاد العرب مثل سكانها ظاهرها عبوس كالح وقلبها ملؤُهُ الكرم والبشاشة

فمن نجد الى اليمن وعمان جبال مرتفعة علوها نحو ٣٠٠٠ قدم عن سطح البحر ثم تعلو رويداً رويداً حتى يبلغ ارتفاعها عشرة آلاف قدم فتكون مثل اعلى جبال لبنان . والحر شديد في سهولها واوديتها ولكن الرطوبة قليلة الاَّ في سواحلها البحرية ولذلك يكون حرُّها محتملاً واما في جبال اليمن وعمان فلا تزيد الحرارة فيها في شهر يوليو على ٨٠ او ٨٥ بميزان فارنهيت فهي مثل بلاد الشام من هذا القبيل وابرد من القطر المصري . ويتكوَّن الصقيع في صنعاء

ثلاثة اشهر من السنة و يغطي الثلج جبل قُبَيْل في فصل الشتاء كلهِ و يشتد البرد شتاء فيهِ وفي كل الجانب الشمالي من بلاد العرب · والهواء في نجد طيب منعش للابدان

وقال السر وليم موير في وصف الطائف "بلاد خصيبة جميلة · غدران في كل مكان تنحدر من الآكام · وسهول لابسة حلَّة سندسيَّة ومحلاة بقلائد الاشجار وظلها الوارف · والطائف مشهورة بفاكهتها عنبها كبير الحب لذيذ الطعم واثمارها مختلفة الانواع والاشكال. الخوخ والرمان واللوز والتفاح والمشمش والتين والسفرجل كلها كثيرة جدًّا و بالغة اقصى درجات الكمال في نموها وطيب طعمها"

وليس في بلاد العرب انهار كبيرة ولكن الامطار التي تقع فيها ولا تجري في غدرانها تغور في ارضها وتظهر ثانية عيونًا متدفقة في الجهات الشرقية منها في الاحساء والبحرين · وتكثر السيول في اليمن وفي كل اودية بلاد العرب · بلاد مثل هذه يحيط بها البحر من ثلاث جهات بين الهند ومصر والشام على ابواب اوربا وقد سمّاها الرومان بالعربية السعيدة لكثرة خيرها وميرها مرَّت عليها القرون وهي تزيد انحطاطًا قرنًا بعد قرن وعامًا بعد آخر حتى في الزمن الذي ارتفع علمها على الجانب الاكبر من المعمورة كانت تستورد الطعام من مصر والشام والاَّ مات اهلها جوعًا والى الآن لا معيشة لاهل عاصمتيها الاَّ من الحجاج

ليقل المفسّرون ما شاؤُوا في تفسير ذلك فانهُ لا يغيّر حالة البلاد الحاضرة وهي ان خيرها كثير ولكن لا ينتفع بهِ اهلها ولا غيرهم . ولم يكن اهلها كذلك من قديم الزمان لانهم اهل تجارة وكان لهم ملكٌ واسع وانفة شماء حتى اعجزوا الروم والفرس وكان المصريون قبل ذلك ينظرون اليهم بعين المهابة والوقار ويحسبون بلادهم منبع الخيرات وجنَّة الخلد

اشرنا الى الماضي البعيد لنسترشد بهِ الى المستقبل اما ما بينهُ وبين الزمن الحاضر فاننا نودُّ ان ننساهُ ولا نذكر منهُ الاَّ حسنة واحدة فتحت باب المستقبل الذي نتمنى ان يعيد الى البلاد عزها الاسبق . وهذه الحسنة هي سكة الحديد التي فُتحت رسميًّا في اول الشهر الماضي

شرعت الحكومة العثمانيَّة في انشاء هذه السكة من الشام الى الحجاز سنة ١٩٠٠ ففي شهر ابريل من تلك السنة اعرب جلالة السلطان عن رغبتهِ في انشائها ودعا المسلمين في كل اقطار الارض الى الاشتراك في هذا العمل الجليل بالتبرع بالمال واكتتب هو بخمسين الف ليرة عثمانيَّة فلبيَّ المحسنون طلبهُ من كل اقطار المسكونة وابتدأ العمل في ٣١ اغسطس من تلك السنة وهو عيد الجلوس الخامس والعشرون · ولقد سار العمل من دمشق الى المدينة سيرًا حثيثًا على غاية الانتظام

فبين دمشق ومعان ٤٥٩ كيلو مترًا ومحطات كثيرة · ومعان امام خرائب البتراء المدينة القديمة التي كانت عاصمة مملكة الانباط · وقد ظهرت فوائد هذه السكة في كل تلك البلاد مع قرب العهد بها فزادت عمارتها وانشئت فيها القرى ونشطت الزراعة من عقالها · والبلاد كلها من اخصب البلدان وقد كانت تمون الالوف والملايين في غابر الزمان . واصبحت عمان بلدةً كبيرة انشئت فيها ورشة لاصلاح القاطرات والمركبات ومخازن للبضائع وفندق للسيَّاح وهي مرتفعة عن سطح البحر ١٠٧٤ مترًا فتضاهي مصايف لبنان في ارتفاعها ويقال ان هواءها جاف جدًّا وانهُ ابرد من هواء حلوان واجف فهي مصحَّة للابدان من اجود المصاح

والسكة بين دمشق ومعان تكاد تكون في مستوىً واحد . وتهبط بعد معان قليلاً ثم تصعد الى علو ١١٥٢ مترًا فوق سطح البحر عند محطة عقبة الحجاز وهي امام خليج العقبة والمسافة منهُ اليها نحو ٩٠ كيلو مترًا ومن السويس الى خليج العقبة ٢٦٠ كيلو مترًا فالمسافة كلها اقل من ٣٥٠ كيلو مترًا ومن السويس الى معان اقل من ٣٢٠ كيلو مترًا فلو انشئت سكة حديديَّة من السويس الى معان او الى عقبة الحجاز لما زادت نفقات انشائها على مليون جنيه

والبلاد بعد عقبة الحجاز قفار تنحدر رويدًا رويدًا الى ان تصل الى تبوك حيث الارتفاع عن سطح البحر ٧٧٥ مترًا والبعد عن دمشق ٦٩٢ كيلو مترًا وهناك محطة كبيرة ومستشفى وورشة لتصليح الآلات ثم ترتفع الارض بعد ذلك رويدًا رريدًا حتى يبلغ ارتفاعها عن سطح البحر ١١٠٣ امتار عند الدار الحمراء و١١٥١ مترًا عند المطَّلع ثم تهبط باسرع مما صعدت وعند المطلع مفرق السيول بين وادي عطبل ووادي حمض

وستكون مدائن صالح او العلا المستودع الكبير قبل الوصول الى المدينة المنورة وذلك يتوقف على الماء فاذا وجد ماء كافٍ في مدائن صالح اختيرت على العلا

ولهذه السكة مبدأٌ آخر من مدينة حيفا على شاطئ بحر الروم الى درعا كما ترى في الخريطة التي في صدر هذا المقالة · وطول السكة كلها من دمشق الى المدينة المنوَّرة ١٣٠٠ كيلو متر وكيلو متران وقد بلغت نفقات انشائها ثلاثة ملايين من الجنيهات وحينما يتم انشاؤُها الى مكة المكرمة يصير طولها ١٧٥٧ كيلو مترًا والى جدة يصير طولها ١٨٢٠ كيلو مترًا ومن حيفا الى درعا ١٦١ كيلو مترًا · وبين المدينة ومكة تصل السكة الى شاطئ البحر الاحمر عند رابغ فتصير رابغ مرفأً يوصل منها الى مكة جنوبًا والى المدينة شمالاً ولا

تزيد نفقات مد السكة الى مكة وجدة على مليون وربع مليون من الجنيهات اذا عمل فيها الجنود كما عملوا في السكة الى المدينة

والبلاد بعد مكة شرقاً وجنوباً بلاد الخير والمير فلا بدَّ من مد سكك الحديد فيها مع الزمن لاستثمار خيراتها فاذا تمَّ لها ذلك واعتمد اهلوها على سعيهم لا على صدقات الحجاج واموال الاوقاف صارت من اوفر بلدان الدولة العثمانية عمراناً

وقد اثني الذين شاهدوا هذه السكة ورأوا جودة ادواتها وعرفوا قلة نفقاتها على دولة المشير كاظم باشا الذي كان ناظراً للانشاءات وقومنداناً للجنود العاملة وعلى سعادة ميسنر باشا رئيس المهندسين الالماني الذي تولى انشاءها الى ان بلغت مدائن صالح عند حدود الحجاز

ولا يخفى ان اكثر دخل السكة سيكون من الحجاج ولذلك لا يظهر نفعها تماماً الَّا بعد وصولها الى مكة وحينئذٍ يصير منها دخل وافر يزيد على نفقاتها لانهُ اذا فرض عدد الحجاج الذين يأتون بها الى مكة خمسين الفاً فقط ومتوسط اجرة الواحد منهم عشرة جنيهات بلغ دخلها من ذلك نصف مليون من الجنيهات في شهرين من الزمان ويظهر لنا ان الدخل يتضاعف في السنة كلها. ومهما كانت النفقات كثيرة لا تزيد على سبعين او ثمانين في المئة من الدخل فتقوم السكة بنفقاتها وصيانتها ويبقى منها شيء من الربح فوق النفع الكبير الذي تنتفعهُ البلاد منها بزيادة عمارتها. واذا مدَّت الى اقصى اليمن وحضرموت عادت تلك البلاد في ربع قرن الى المنزلة التي كانت فيها لما لُقّبت بالعربيَّة السعيدة. ولقد احتفل بافتتاح هذه السكة رسميًّا في اول سبتمبر الماضي في المدينة المنورة فقدمها الوفد السلطاني من دمشق وفيهِ كثيرون من مكاتبي الجرائد وبينهم مندوب من قبل المقطم وافتتح الاحتفال مفتي دمشق الشام بالدعاء للاسلام وتلاهُ دولتلو كاظم باشا بخطبة وجيزة شكر بها الجنود لقيامهم بانشاء هذه السكة قياماً يخلد لهم الذكر والفخر في تاريخ الجنود العثمانية واطنب في شكر المهندسين على ما بذلوهُ من الهمة وما تحملوهُ من المشاق حتى انجزوا عملهم وتكلم بعض الحضور بما ناسب المقام ووقف جواد باشا رئيس الوفد السلطاني وابلغ الجنود شكر الحضرة السلطانية لهم ثم اعلن افتتاح السكة رسميًّا . وكان المهندس الماهر مختار بك حاضراً وهو الذي اتمَّ السكة من مدائن صالح الى المدينة المنورة فحملهُ الجموع هو وجواد باشا على الاكف من شدة الاحتفاء بهما وطلبوا من مختار بك ان يقسم لهم على انهُ يتم السكة الى مكة المكرمة فاقسم انهُ يبذل جهدهُ في هذا السبيل

الثورة العثمانية

من ينظر في حوادث الكون بعين التروي يجد انها تتبع في سيرها اسلوبين مختلفين الواحد اسلوب التدرُّج اي التغير البطيء المتوالي والثاني اسلوب الانقلاب الفجائي . والغالب ان يشترك الاسلوبان معًا فيكون الاول ممهدًا للثاني . فاذا اختلَّ بناء بيت انصدعت جدرانهُ كلها او بعضها ومال على احد جوانبهِ ميلاً طفيفًا . وقد تمرُّ عليهِ الايام والسنون وميلهُ لا يزيد في اليوم والشهر زيادة يشعر بها ثم ينهدم كلهُ بغتةً في لحظة من الزمان . واذا فعلت الزلازل بجبل فقدَّت جانبًا منهُ فقد يبقى ذلك الجانب متصلاً بالجبل وتمرُّ السنون وهو يزيد انفصالاً عنهُ زيادة طفيفة جدًّا لا تكاد تظهر لعين الرائي الى ان تختل الموازنة ويقع مركز الثقل خارج القاعدة او يتغلب الثقل على قوة الاتصال فينهدم ذلك الجانب بغتةً ويخرّب في طريقهِ القرى والمزارع .

وقد حدث شيءٌ من ذلك في البلاد العثمانية فان سوء الادارة الذي حل بها منذ خمسة وعشرين عامًا زاد رويدًا رويدًا حتى انفتهُ النفوس الكبيرة فانصدع بعضها وهاجر البعض الاخر من البلاد وجاهر بمقاومة سوء الادارة وكشف عيوبهِ وهو لا يزيد الاَّ استحكامًا الى ان ضاقت حلقاتهُ على ضباط الجيش العثماني واكثرهم من المتعلمين المتهذبين الذين يأنفون من الضيم ولا يصبرون على المذلة اذا استطاعوا الخروج منها . وكان اصحاب النفوس الكبيرة الذين غادروا البلاد العثمانية قد اتحدوا على التنديد بالادارة السيئة الضاربة اطنابها في بلادهم فاشترك معهم كثيرون من اولئك الضباط وجاهروا بطلب الاصلاح اي باعادة القانون الاساسي وجعل حكومة البلاد العثمانية دستورية نيابية مثل سائر البلدان الاوربيَّة . ولما رأى رجال الحكومة ان هذا الطلب عادل وانهُ لاقبَل لهم بمقاومة الجيش قرَّ رأيهم على اعادة القانون الاساسي واجابة حزب تركيا الفتاة او جمعية الاتحاد والترقي التي الَّفها ضباط الجيش فصدر امر جلالة السلطان باعادة القانون وحلف على العمل بهِ امام شيخ الاسلام والغى طغمة الجواسيس وامر بانتخاب النوب لمجلس المبعوثان واسند مناصب الوزارة الى الوزراء الذين اشارت بهم جمعية الاتحاد والترقي الى ان يجتمع مجلس المبعوثان وتسند الوزارة الى زعمائهِ . ولقد كنا نثبت في المقطم جريدتنا اليومية عيوب الحكومة الماضية ولاغرض لنا الاَّ الارشاد الى مواقع الخطإ لاصلاحهِ والاشارة الى المفاسد لازالتها ومرَّت عشرون سنة من حين انشاء المقطم الى ان صدرت الارادة السنية باعادة القانون الاساسي ونحن جارون في خطة

واحدة نمدح ما نراهُ مستحقاً للمدح ونذم ما نراهُ مستحقاً للذم من اعمال الحكومة الماضية . وصغار الاحلام يظنون اننا نندد بالدولة العثمانية نفسها وما تنديدنا الاَّ بالحكومة العثمانية او الحكومة الحميدية التي كانت سائدة في ذلك الحين

ولم يحن الوقت الآن للبحث في تاريخ هذه الثورة التي قلبت الحكومة العثمانية من حكومة استبدادية الى حكومة دستورية وذكر اقدار الرجال الذين كانت لهم اليد الطولى فيها والدماء التي اريقت في سبيلها . ولكن لا بدَّ من فعل ذلك كلهِ حالما تتوطد اركان مجلس المبعوثان وحينئذٍ تكون مجلدات المقتطف العشرين من خير المصادر لجمع الحقائق التي يتألَّف منها تاريخ هذه الثورة الشريفة وتكون الاعمال التي عملتها جمعية الاتحاد والترقي والاقوال التي فاه بها زعماؤُها من ادلّ الادلة على نبالة الامَّة التركيَّة وكرم اخلاقها

وقد اشتهر من هؤُلاء الزعماء اسم ضابطين من ضباط الجيش وهما انور بك ونيازي بك واثَّر عملهما في نفوس الامَّة العثمانية عموماً تأثيراً دعاها الى الاهتمام بانشاء بارجتين حربيتين تسميهما باسميهما اعترافاً منها بفضلهما فأبيا ذلك وطلبا ان تسميا باسم مدحت باشا واضع القانون الاساسي واحمد نامق كمال المنشىء التركي البليغ الذي رقَّى مدارك امتهِ بكتاباتهِ

وقد جرى لمكاتب التيمس مع انور بك احد هذين الزعيمين حديث اعرب فيهِ عن مقاصد جمعية الاتحاد والترقي فآثرنا اثباتهُ هنا لانهُ من اقوى الادلة على نبالة مقاصد هذه الجمعية وحصافة رأيها وحسن نظرها في العواقب قال المكاتب

جرى لي حديث طويل طلي مع انور بك هذا الصباح قبل مغادرتي لسلانيك وهو يجيد الفرنسوية فكان يكلمني بها بتأنٍ وتروٍ وتواضع ويشرح سياسة جمعية الاتحاد والترقي باسهاب ويخبرني بما تنوي فعلهُ في المستقبل وهو من اوجه اعضائها كما لا يخفى . وهاك الاقوال التي قالها نقلتها وهو يفوه بها وارسلتها لتنشر برضاهُ وموافقتهِ قال

" تراني اشتغل في مكتبٍ سياسي ولكن ارجو ان تعلم اني لست زعيماً لثورة بل جندي اضطرتهُ الاحوال الى الاشتغال بالسياسة . فقد ساقتني التقادير الى هذا المكان لاني وان كنت قد انتظمت بين اعضاء جمعية الاتحاد والترقي منذ اعوام لم اقدم على عمل عمومي حتى وشى بي جواسيس المابين وصدر اليَّ الامر بالذهاب الى الاستانة فلم امتثل الامر بل فعلت كما فعل رفيقي نيازي بك فالتجأت الى الآكام وكان من وراء ذلك انني نلت شهرة لم اكن اطلبها ولا كنت اسعى اليها ولكن يعلم اخواني الضباط لحسن الحظ ان منتهى غايتي واقصى مناي خدمة وطني بكل اتضاع

اما الثورة فثورة وطنية لا ثورة عسكريَّة لانها ثورة امة باسرها على حكومة اوصلتها الى شفا اليأس والقنوط وليس الجيش صاحب الامر والنهي فيها بل هو خادم الامة المنفذ لارادتها المتمم لرغائبها . هذه حقيقة اريد ان ترسخ في الاذهان · اما جمعية الاتحاد والترقي فقائمة الآن مقام مجلس المبعوثان وهي تشير على الحكومة بما يجب عليها فعلهُ وتمدها بالرأي وتطلعها على كل ما تهم معرفتهُ في المسائل العمومية

وقد كانت هذه الثورة ثورة على استبداد المابين ولكن اللجنة تؤيد السلطان الملك الشرعي ما دام يحترم الدستور

اما الدول الاوربيَّة فاللجنة تروم اكتساب ثقتها باجتناب كل ما يسوءها · وقد عاد النظام الى مكدونية الآن لا بفعل الدول بل لان تأثير الثورة فيها كان تحريك عوامل الصلح والسلام بين اهليها· واما مسألة استرجاع الدول لضباط الجندرمة من مكدونية فمن المسائل التي يتعلق بالدول حلها وستحل من نفسها بطبيعة الحال لانهُ اذا بقي النظام مستتبًا في مكدونية فان الدول تسترجع جنودها طبعًا لزوال الحاجة اليهم

واما الجيش العثماني فجمعية الاتحاد والترقي تريد اجراء الاصلاح التام فيهِ · فينبغي للرعايا العثمانيين ان ينالوا كلهم نصيبهم من الخدمة العسكريَّة مهما كانت اديانهم ومذاهبهم فكما ان الجيش البريطاني في الهند مؤلف من المسلمين والبراهمة والسك والمسيحيين كذلك يجب على المسيحيين ان ينتظموا في سلك الجيش العثماني ويقفوا فيهِ جنبًا لجنب هم واخوانهم المسلمون · وكذلك يجب اصلاح نظام الجيش وجعل طريقة التعليم والتمرين فيهِ اصلح والعمل بها اسهل مما هو عليهِ الآن وتوسيع المجال للافراد حتى يظهروا ما امتازوا بهِ ويتقوى روح التعاون والتضامن بينهم · وقد كانت عزائم الضباط تثبط في ما مضى والذين يجدُّون ويجتهدون منهم يوشى بهم الى المابين ويتهمون بالتآمر على الفتن واما في المستقبل فسيكون المجال فسيحًا في الجيش لكل من يجدُّ ويقصد التقدم والنبوغ فيهِ والخلاصة ان الذي نريدهُ هو جيش وطني لا جيش اسلامي فقط

وليس للجامعة الاسلامية محل في خطة جمعية الاتحاد والترقي · والقطر المصري خارج عن نطاق اعمالنا ومراميها وحزب تركيا الفتاة يأبى التعرض لعمل الحكومة الانكليزية المجيد في مصر ولا يعير المهيجين والمحرضين فيها اقل مساعدة او التفات فهمُّ اللجنة كلهُ هو اصلاح تركيا وترقيتها على المبادىء الدستوريَّة واملنا ان نجد في ذلك تأييدًا من حكومة الملك ادورد وميلاً الينا وعطفًا علينا من الحكومة الانكليزية " · اه

قال المكاتب . فهذه هي كلمات ذلك الضابط العثماني الشاب الذي اكتسب ببسالتهِ وسمو اخلاقهِ مزيد الاحترام والحب والاكرام من امتهِ وهو لا يزال في السابعة والعشرين من عمرهِ يستخدم النفوذ الذي حازهُ بحكمة ودراية تحكيان حكمة اقطاب السياسة المجربين وحنكة ذوي الخبرة المدربين . انتهى

وقد اشتهر هذان الضابطان الصغيران في رتبتيهما في الجيش الكبيران بقلبيهما ونفسيهما اشتهاراً عظيماً فطبَّق اسماهما الآفاق وتحدَّث العثمانيون والاجانب بصنيعهما فقرنت الصحف العثمانية اسم كل منهما بكلمة (قهرمان حريت) اي بطل الحرية

ونيازي بك يوزباشي في الجيش العثماني ولد في رزنه من ولاية موناستير ونشأ فيها وهو اشد شكيمة واقوى عضلاً واصبر على الحرب والقتال من رفيقهِ انور بك . كلفتهُ الدولة مطاردة العصابات البلغاريَّة منذ خمسة اعوام فقام بمهمتهِ خير قيام الَّا انهُ كان كلما قبض على رجال عصابة ترد اوامر الاستانة الى المتصرف او القائمقام باخلاء سبيلهم . ولما علم ان لا فائدة من تعبهِ وتعقبهِ الثوار قعد عن ذلك واخذ يفكر في طريقة اخرى ينجي بها البلاد مما وقعت فيهِ . ثم انشأَت جمعية الاتحاد والترقي فرعًا لها في سلانيك فانضم اليهِ واصبح من اقدر رجالهِ وانفذهم كلمة . ولما قررت الجمعية وجوب استعمال القوة كان نيازي بك اول من استنفرتهم الى القتال فنفروا . وهو يناهز الخامسة والثلاثين حسن الطلعة برَّاق العينين تدل ملامحهُ على الفروسية والشجاعة والاقدام

وانور بك ارق من صديقهِ عاطفة وانحل جسمًا . ولد في الاستانة وتخرج في مدرستها الحربيَّة ثم انتظم في سلك الفيلق الثالث فبلغ درجة بكباشي فيهِ . وهو من خيرة الضباط المتعلمين قضى في مقدونية زمانًا طويلاً فاثرت فيهِ حالها الاخيرة تأثيرًا عظيماً ورأى البلاد تخرج من يد الدولة رويدًا رويدًا فاخذ مع اخوانهِ الضباط يفكرون في طريقة يصلحون بها تلك الحالة فلما تأسس فرع جمعية الاتحاد والترقي في سلانيك دخل فيهِ واحكم صلات المودة بينهُ وبين نيازي بك وبقية اخوانهِ وكان من خيرة الرجال العاملين على نشر الآراء الحرة بين طبقات ضباط الجيش . فلما دنت ساعة العمل واستنهضت الجمعية همة اعضائها نهض في مقدمتهم برجالهِ وانضم الى نيازي بك فكان روح تلك النهضة الشريفة للاصلاح والحرية

هذان هما البطلان اللذان يعزى اليهما الفضل الاكبر في تخليص الدولة العثمانية مما كانت فيهِ كما يعزى الى الذين جاهروا بالسنتهم واقلامهم من احرار العثمانيين

المجتمع الروماني زمن القياصرة

لمَّا دالت الحكومة الجمهوريَّة من البلاد الرومانية انتهت السلطة فيها الى القياصرة الذين نبوأُوا الملك ووسدت لهم السلطة المطلقة فكانوا روٴساء المجلس الاعلى وقادة الجيش وواضعي الضرائب ومشترعي الشرائع والاسياد المطاعين في اوامرهم والحاكمين بلا معارض

وكان القيصر يتمتع ما دام حيًّا بالحكم المطلق واليهِ ينتهي الامر والنهي حتى اذا مات اجتمع المجلس الاعلى المعروف بالسنا وجعل يبحث في اعمالهِ ويفحص سائر شوٴونهِ واحوالهِ فاذا تبيَّن لهُ منها ما يخرج عن العدل وكان مشوبًا بالجور والظلم امر بكسر تمثالهِ ونبذ اسمهِ من مصاف العظماء واذا ظهر لهُ عكس ذلك ووجد اعمالهُ طيبةً لا غبار عليها من الظلم والعسف رفعوهُ الى مصاف الارباب وصار في عداد الالهة على ان هذا المجلس قلما شجب اعمال القياصرة ولهذا صار اكثرهم اربابًا وشيدت لهم الهياكل وقام الكهان على سدانتهم . وتأليه الملوك عادةٌ سرت اليهم من البلدان اليونانية الشرقية

وترى صفحات التاريخ ملأَى باخبار القياصرة واستبدادهم في الامة وانتهاء السلطة اليهم فكانوا يأتون من الاعمال ما يريدون غير معارضين في شيء مما يحكمون بهِ على الناس واملاكهم ونفوسهم على ما قال في ذلك مشترع روماني ان امر القيصر فوق كل شريعةٍ الأَ انهُ كان بينهم نفرٌ من ذوي النفوس الطاهرة يتبعون الحق في احكامهم فلا تسكرهم خمرة السوٴدد ولا تأخذهم بهرجة الملك فيسرفون في الجور والعسف كما فعل نيرون في اعنات الاعيان ومصادرة الاغنياء

قلنا ان القيصر كان يترأَس المجلس الاعلى المعروف بالسنا وقد ظلَّ هذا المجلس على شأنهِ الاول ايام الجمهورية يضمُّ اليهِ اعاظم الاغنياء وكبار رجال السلطنة وتتطاول الى الدخول فيهِ كبراء الامة ولا بدع فهو اعظم منصبٍ واشرف مقام يستطيع الروماني الحرّ الوصول اليهِ متى كانت الامر النبيلة تتفاخر باحراز احادها العضوية فيهِ ولئن كان في زمن القياصرة عطلاً من كل سلطة غير اتسام الاعضاء بالنبالة والشرف

وما كان الشعب الروماني في اعتبار الحكومة كل من سكن البلاد واقام فيها بل جماعة الوطنيين المتمتعين بالحقوق المدنية الممتازين على مساكنيهم بامور كثيرة من مثل حسبان الوطني عضوًا في الهيئة السياسية يحق لهُ الانتخاب وحضور الحفلات المقدسة والتمتع بحماية

الشريعة والزواج القانوني وان يكون ابا عائلةٍ بمعنى انهُ السيد المطلق على زوجتهِ واولادهِ وهو حرٌّ في الوصاية والبيع والشراء. ومن لم يكن وطنيًّا يُمنع من حضور الحفلات ومن التجند ولا يستطيع الزواج ولا يُحسب ابا عائلةٍ ولا صاحب ملك ولا يباح لهُ الاحتماء بعدل الشريعة ولا طلب المقاضاة في المحاكم

ولم يكن الوطنيون سواءً من حيث الحقوق والاعتبار بل كانوا مراتب بعضها فوق بعض ولكل مرتبةٍ منها شأن خاص يميزها عن المرتبة الاخرى واعلى تلك المراتب شأنًا الاعيان وهم ابناء اعضاء المجلس الاعلى (السنا) او الولاة والقضاة وكان كل من تولَّى احد هذه المناصب العالية حسب نبيلاً واتصل الشرف باولادهِ من بعدهِ وكان اذا حاز رجل منهم منصبًا تردَّى بحلةٍ موشاة بالارجوان واتخذ مقعدًا خاصًّا بالوظيفة وحق لهُ ان يصنع تمثالاً على صورتهِ وينصبهُ في احد مخادع منزلهِ الى ان يموت فيجعل التمثال فوق عجلةٍ ويسار بهِ في موكبٍ حافل وبعد التأبين يوضع في مقدس البيت ويحسب في عداد آلهة العائلة حيث كان من عادة الاسر الرومانية ان تعبد اجدادها

ولما رأى القياصرة ان البيوتات الشريفة القديمة على وشك الاندثار طفقوا يولون مناصب الشرف اغنياء الرومانيين من التجار والصيارف وكبار الملاك بحيث لم يطل الامر كثيرًا حتى اصبحت العيال الرومانية ذات الثروة الطائلة من الاشراف وكانت عيشة كل واحد من هؤُلاء الاشراف في منتهى الابهة يحيط بهِ عدد من الارقاء يقيمون على خدمتهِ في قصر فخيم في رومية يزدحم فيهِ كل يوم جماهير من الزائرين يجيئُونهُ لتأدية الاحترام. ولم يكن عمل الشريف الاَّ الانهماك بالملذات والاسترسال الى الشهوات وكان اذا خرج الى السوق يحفُّ بهِ خلق كبير من الارقاء والاتباع. هذه كانت عادة الاشراف والاعيان ومن احجم منهم عن اتباعها سلقتهُ الالسن بالهزء

ويلي هؤُلاء الاشراف جماعة الفرسان وهم الوطنيون اصحاب الثروة الذين لم يتصل اليهم الشرف ارثًا عن آبائهم على انهم لا يبلغون هذه المرتبة الاَّ اذا تسجلت ثروتهم في دفاتر الحكومة وتبلغ من المال قدرًا معلومًا يساوي من نقود هذه الايام زهاء عشرة آلاف فرنك ويحق لاهل هذه المرتبة حضور المشاهد والملاعب العمومية والجلوس فيها بعد الاشراف وان ينتخب منهم الولاة والقضاة واعضاء المجلس الاعلى ومن نال منهم احدى هذه الوظائف حسبوهُ شريفًا وتوارث الشرف عنهُ ابناؤُهُ من بعدهِ وحينئذٍ يحق لهم التمتع بامتيازات الاعيان من مثل التصدر في المحال الاولى في الملاعب والحفلات واذا حكم عليهِ بالموت فلا يكون

بالصلب او بالقائهِ الى الوحوش الضارية . ولا يُعاقب بالعذاب كما كان يعاقب المجرمون من سائر مراتب المجتمع

ويلي هاتين المرتبتين الوطنيون الاحرار وهم السواد الاعظم من الشعب الروماني ويؤلفون من الوطنيين الايطاليين اهل الصناعات والحرف ومن ابناء الارقاء المعتقين وكلهم يظلون على ما توارثوهُ من الاعمال ولا يحق لهم حمل السلاح ولا الانتظام في سلك الجيش

ولقد كان اهل هذه المرتبة معظم الشعب الروماني قبل ان استفحل شأن السلطنة وامتدت فتوحاتها الى شرق الارض وغربها ثم انهُ تغير الحال في هيئة الاهلين بما اضيف اليهم من الارقاء المعتقين الذين لما ضاقت بهم اسباب الارتزاق شرعت الحكومة منذ سنة ١٢٥ قبل المسيح تستحضر القمح من سيسيليا وافريقيا وتبيعهُ منهم بنصف ثمنهِ وسنة ٦٥ قبل المسيح صارت توزع القمح والزيت مجاناً حتى بلغ عدد من توزع عليهم القوت مجاناً سنة ٤٦ قبل المسيح ٥٢٠,٠٠٠ نفس

اما الارقاء فكانوا احطَّ مراتب المجتمع الروماني شأناً واشدها شقاء واكثرها ويلاً القتهم رحى الحرب الى رحمة الظافر فحقن دماءهم وابقى عليهم كأنهم المتاع يتصرف فيهم على ما يشاء غير معارض فيما يريدهُ منهم وقد جعلتهم سنن الحروب القديمة غنيمة الظافر وثمرة انتصارهِ . وكان من عادة الرومان اذا زحفوا لاكتساح بلاد سار معهم تجار الرقيق ليشتروا منهم اسارى الحرب ويسيروهم الى اسواق رومية ليباعوا فيها بالمزايدة . وقد كان في مدينة من المدائن الرومانية سوق خاصة لبيع الارقاء كما كان فيها اسواق اخرى لبيع الخيل والبقر وغيرها من الحيوانات الاليفة وكانوا يوقفون الرقيق المعد للبيع على دكة عالية ويضعون في عنقهِ بطاقة تعلن عمرهُ ومناقبهُ ومعايبهُ

ولم يكن يباح للرقيق التمتع بالحقوق المدنية ولا يجوز لهُ التملك ولا الزواج ولا ان يكون ابا عائلة ولا ان يرافع في المحاكم مطالباً المعتدي عليهِ بشرعة القانون وللمالكِ فيهِ حق تصرُّف المالك بملكهِ فيبعث بهِ الى اي موضع شاء ويشغلهُ بما اراد من الاشغال الشاقة وهو غير مسئول في اطعامهِ كثيراً او قليلاً ولا في ضربهِ الضرب الشديد حتى الموت

واما معاملة السيد للرقيق فكانت على ضروب شتى تختلف لاختلاف اخلاق الاسياد وطباعهم فقد كان للادباء منهم عواطف سامية ومبادئ جليلة فلا يلقى الارقَّاء منهم الاَّ اللين والتؤدة فقد انبأتنا الاخبار عن شيشرون وسنكا وبلينيوس انهم كانوا يطعمون الارقاء من افخر ما يأكلون ويجالسونهم على موائد الطعام ويحادثونهم في شؤونهم ويكثرون لهم

الهبات حتى اذا ماتوا اخلفوا لاولادهم شيئاً من المال . وعلمنا من سير غيرهم انهم كانوا يعاملون الرقيق كالحيوان الاعجم ويأخذونهُ بكل ضروب القسوة والجنف . قيل ان احد الاعيان بينما كان يطعم السمك في بركة ماء في بيتهِ واذ مرَّ بهِ واحدٌ من الارقاء فكسر اتفاقاً وعاءً كان هناك فاحتدم السيد غيظاً وطرح الرقيق في البركة ليكون طعاماً للسمك . وحدَّث سنكا باشياء كثيرة مما كان يعانيهِ الارقاء من جنف الاسياد وغطرستهم من ذلك انهُ اذا تنحنح الرقيق او عطس وسيدهُ على مائدة الطعام او وقع المفتاح منهُ على الارض فاصات تقوم قيامة السيد فيوسعهُ ضرباً وشتماً فاذا تبرم او ظهرت على وجههِ علائم الكدر والملل جلدهُ بالسوط شديدًا . وكان بعض الاسياد يضرب الرقيق ضرباً مبرحاً حتى يكسر عضواً من اعضائهِ من ذلك ان الفيلسوف ابكتونس كان جنبهُ مكسورًا من ضرب سيدهِ لهُ يوم كان رقيقاً . ولم يكن النساء اوفر حلماً من الرجال ولا اقل منهم قسوةً فقد كانت الاماء يقمن على تزيين سيداتهنَّ وتبريجهنَّ والسيدات يغرزن الابر في ذراع الامة المسكينة وهي تحتمل عذاب الوخز المر صامتةً والسيدة مسرورة من هذه المداعبة . ولم يكن الراي العام يسفه مثل هذه القسوة ولا كانت الشريعة تنهى عن ارتكابها حتى انهُ كان في القرن الاول للمسيح انهُ اذا قُتل سيد في منزلهِ اقتصت الحكومة من ارقاء المقتول وان لم يكن لديها ما يثبت ارتكابهم الجريمة او يوقع الشبهة عليهم

وكنت ترى جلد الارقاء ازرق من ضرب السياط وكان لباسهم قمصاناً من الاسمال البالية وهم يحلقون شعور رؤُوسهم ويدمغون جباههم ويعاقب الآبق منهم شر عقاب بان يلقى الى الوحوش الضارية فتمزقهُ تمزيقاً

وكان كلما اعتز شأن رومة وعظم سلطانها ازداد عدد الارقاء فيها حتى صار الواحد من الاشراف يملك من العشرة الى العشرين الف رقيق على ان كثرة الارقاء وما كانوا يقاسونهُ من جور الموالي ادى بهم الى شق عصا الطاعة والخروج على اسيادهم في مواضع كثيرة من السلطنة من مثل ثورة صقلية وسبارتاكوس اللتين افضتا الى اضعاف صولة الاشراف واعتلاء شأن الارقاء

ولما وقفت السلطنة الرومانية عن السعي وراء توسيع املاكها عدلت الى الرفق بالارقاء واصدرت امرًا سنة ٢١٢ تعلن فيهِ وطنية سكان السلطنة من اشراف وارقاء

ولم يكن النساء احرارًا فكانت العذراء في البيت تحت امر ابيها يتصرف في شؤُونها على ما يريد ولا ارادة لها على نفسها فيختار لها الزوج ويزفها اليهِ واذا صارت زوجة لبثت

ايضاً تحت سلطة زوجها وهو سيدها المطاع فاذا شاء ابقى على حياتها او اماتها غير مسؤول

ومع ما للرجل الروماني من السلطة المطلقة على زوجتهِ فقد كان يساويها بنفسهِ ولا يسومها الخسف او يعمل على حطة قدرها فيعهد اليها بادارة المنزل والرئاسة على الارقاء فيهِ وهي تقوم بتربية الاولاد والعناية بهم والنظر في شؤون الارقاء وتوزيع الاعمال عليهم ولا تحتجب عن الرجال شأن النساء عند اليونان وانما كانت تجلس في القاعة تستقبل الزائرين من الرجال وتأكل معهم في الولائم على موائد الطعام وتحضر الحفلات والمشاهد الاَّ انها لم تكن على شيء من العلم لقعود الرومان عن تعليم بناتهم وكان جل ما يطلبونهُ من المرأة الزهد ويذكرونهُ لها على ضريحها حيث يكتبون عليهِ كانت تلازم البيت وتقوم على غزل الصوف

وكان الاب الروماني كاهن العائلة في عبادة اسلافها والسيد المطلق في شؤونها يحق لهُ طلاق زوجتهِ وطرد اولادهِ او بيعهم جميعهم في الاسواق وغير ذلك من حق المالك في ملكهِ وكان الصبيان يشاركون الاب في اعمالهِ وتقيم البنات في البيت تحت امرة الام يتعلمنَ الغزل والنسج ويتدربن على القناعة والطاعة

ولم يكن للرومان عناية كبيرة بتعليم اولادهم فكان معظم الاهلين اميين يجهلون القراءة والكتابة الاَّ نفرًا من اغنياء الامة واشرافها كانوا يبعثون باولادهم الى المدارس ليتلقوا فيها القراءة والكتابة والبيان في اللغتين اللاتينيَّة واليونانية عن اساتذة يونانيين يقبضون اجورهم الزهيدة من الآباء ويسلكون في التعليم طريقة الضرب بالسوط والقضبان وقد وجدوا في ببابي صورة تمثل المعلم يجلد تلميذًا ورفاقهُ قابضين عليهِ

ان انصراف الرومانيين الى السياسة وتطلعهم الى الفتوحات حال دون سعيهم وراء العلم ومع ذلك فقد اخذوهُ عن اليونان وسلكوا فيهِ مناهجهم فبعد ان كانت مدارسهم مقتصرة على تعليم الاولاد القراءة والرياضة البدنية صارت تلقنهم العلوم لاسيما البيان بكل ضروبهِ ولم تعدم الفلسفة طلاَّبًا يؤمون دارها ويرفعون لواءها ولئن لم يزيدوا على ما وضع اليونان شيئًا فقد تسربت الرواقية بآدابها الى شرائعهم وكان لها فيما سنُّوهُ شأن عظيم

وما ضرب الرومان عن الفنون صفحًا ولا اهملوا الصناعات وان لم تكن نشأة ارضهم فقد تحدوا اليونان فيها وتابعوهم في معظمها وازدهت الآداب اللاتينية في ايام اغسطس قيصر وعظم شأنها حيث ظهر في تضاعيفها فطاحل الشعراء مثل فرجيل وهوراس واوفيد وغيرهم ومثل ذلك قل عن صناعة البناء في عهد هذا القيصر فقد بلغت من الاحكام والجمال مبلغًا كبيرًا وكانت منازل الاغنياء في شكل يباين شكل الدور الفخيمة لعهدنا هذا اذ لم يكن لها

من واجهات الى الخارج وغرفها مظلمة صغيرة يتخللها نور النهار من عرصة الدار وكانت القاعة الكبرى في الوسط وهي ملأى بتماثيل اجداد الاسرة وتنار من كوًى قائمة في السقف وفسحة الدار مبلطة بالفسيفساء

وكان للتمثيل شأن عظيم عند الرومان يتوافدون اليهِ في ايامهِ المعروفة افواجاً ويحسبونهُ من اعظم مظاهر الانس واكبر مجالي السرور حتى كان القياصرة يزيدون في عدد ايامهِ المعينة استرضاء للامة فقد كانت تقام زمن الحكم الجمهوري ٦٦ مرة كل سنة فزيدت في زمن القياصرة حتى صارت ١٥٥ مرة في السنة وتبتدئ الالعاب عادةً عند شروق الشمس وتختتم عند غروبها ولا يحضرها غير الاحرار من الوطنيين

وكانت الالعاب عندهم على ضروب شتَّى منها التمثيل وقد اتبعوا فيهِ لاول عهدهم النهج اليوناني بان يلعب الممثلون ادوارهم بوجوهٍ عارية على ان هذا الضرب من التمثيل والضروب الاخرى منهُ كالتراجديا وغيرها لم تنطبق على اذواق الرومانيين ولا راقت في اعينهم لخلوهم من العواطف السامية والرغبة في العلم وتملك الميل الحربي فيهم بحيث لا تسرّ نفوسهم ولا ترتاح خواطرهم الاَّ حيث يرون الدماء تهرق والنفوس تزهق من مقارعة الابطال ومصارعة الوحوش

وقد بذل الرومان جهدهم في تشييد المحال المعدة للالعاب والتمثيل فاقاموها بين التلال والآكام ليكون الموضع على شكل مستدير ويصلح مقاعد للمشاهدين وكانت الملاعب القديمة مؤلفة من قسمين قسم معد للمشاهدين وهو على شكل نصف دائرة والقسم الثاني للممثلين على شكل قائم الزوايا وكان موضع المتفرجين فسيحاً جدًّا في احد ملاعبهم يسع زهاء مئتين وخمسين الفاً وقيل انهم زادوهُ في القرن الرابع اتساعاً حتى صار يسع حوالي ثلثمائة وخمسة وثمانين الفاً

وفي تلك المحال المعدّة للالعاب كان يزدحم اشراف الرومانيين والوطنيون الاحرار منهم مع نسائهم واولادهم ويقيمون النهار بطولهِ يتفرجون على الملاعب الكثيرة منها سباق المركبات التي تجرها اربعة افراس وكان السائق يعدو بمركبتهِ ثلاث مرات حول الملعب ويتم في النهار الواحد خمسة وعشرين شوطاً وكان لكل سائق جماعة من النصراء والمتشيعين يحملون اشارةً ملونةً تميزهم عن نصراء السائق الآخر وكان الناس يتحدثون كثيراً بامر هذا السباق ويهتمون بهِ جدًّا حتى كان القياصرة انفسهم في بعض الاحايين ينحرفون الى حزب منها دون الآخر وتتخذ المناظرة شكلاً سياسيًّا

وهناك نوع آخر من الالعاب لهُ شأن عظيم ذلك ان تطلق الوحوش الضاربة على مشهد

من المتفرجين و يبرز لقتالها الرجال الاشداء مسلحين بالحراب ثم زادوا هذه المشاهد شراسة بان تبرز الرجال وهي عزل من السلاح لمقاتلة الوحوش فتهجم عليهم الكواسر وتمزقهم تمزيقاً تقشعر منهُ الابدان ومع ذلك لم يكن يرى شيء من علائم الكدر والاشمئزاز على وجوه المتفرجين من الرجال والنساء والاولاد بل كان يرى عليهم دلائل المسرة والرضى

ومن المشاهد الوطنية المصارعة وهي مبارزة الرجال بالسلاح فكانوا يأتون بالمحكوم عليهم واسرى الحرب والارقاء الى ساحة الملعب حيث يعتقل كل واحد منهم سلاحهُ الوطني ويقتتلون حتى يلقي الظافر خصمهُ على الارض مجندلاً بدمائهِ وكثيرًا ما كان يدخل في زمرة المتبارزين جماعة من الوطنيين الاحرار حتى من الاشراف انفسهم ويأخذون في المناجزة حتى ينالوا شرف الغلبة او يقضى عليهم

وكانت الحلفات شائعة في كل البلاد الرومانيَّة على ان معظمها كان في المواضع اليونانية الشرقية وكان لكل صناعة حلفة خاصة بها تجمع اعضاءها الى التعاضد والتعاون وكان ينخرط في سلك تلك الحلفات احياناً نفر من الاغنياء واصحاب الثروة كحلفة العشارين جباة الضرائب والحلفة التجارية التي كانت تتجر بين ايطاليا وغاليا الَّا ان سواد اعضائها كان من الاوساط

ولم تكن الحكومة الرومانية راضية عن هذه الحلفات فكانت تثبط سيرها وتمنع اجتماعها ثم عدلت الى الرفق بها وآل الامر اخيرًا في القرن الثالث ان مدت لها يد الاسعاف

ولئن بلغت هذه السلطنة العظيمة مبلغاً عليًّا من البسطة والجاه وتوفرت فيها اسباب الحضارة والعمران فقد كانت آداب اهلها سافلة كلها فساد ودعارة حيث كان الفسق والفجور والغلو في الترف وقسوة الاسياد على الارقاء زيًّا متبعاً لا تحمرّ لهُ الوجوه ولا تبكت عليهِ الضمائر ومما زاد في طين فسادهم بلة ضعف التدين فيهم لان عقيدتهم الاولى على خشونتها كانت لا تخلو من زواجر تنهى عن المنكر فلما ضعفت فيهم بما تبينوهُ من وهنها ضربوا بفضائلها عرض الحائط ولم يرجعوا الى عاداتهم القديمة ولا الى الفضائل الفطريَّة التي تحلَّى بها اجدادهم

والفرق بين اليونان والرومان ان الاولين ظلُّوا سائدين في آدابهم عصورًا طوالاً بعد سقوط دولتهم بخلاف الرومان الذين سقطت آدابهم ابَّان ازدهائهم السياسي وامتداد سلطانهم وبعبارة اخرى غُلب اليونان على ملكهم وممتلكاتهم ولكنهم غلبوا بلغتهم وعلومهم وآدابهم فكان اليوناني المغلوب سيدًا بعلمهِ وحكمتهِ والروماني غالباً بسيفهِ وبطشهِ ومغلوباً بفسادهِ وطيشهِ

طرابلس صموئيل بني

الراهن والواهن في المادية

(تابع ما قبلهُ)

الحياة

ما هي الحياة وكيف ظهرت "ابقيت القوة الخالقة السنين الطوال تنظر الى السديم وترقب المادة الاصلية الى ان تقلّصت وانفصلت الارض عن الشمس ام صبرت حتى تكونت القشرة الخارجية على وجه الارض وحتى تصاعد البخار وتجمعت المياه في الابحار وصارت الارض صالحة للحياة ثم قالت لتكن الحياة فكانت ". سوءال سألهُ تندل واجاب عليهِ بان الحياة نشأت من مادة الكون الاصلية نشوءا طبيعيًا محضاً . وكيف يسوغ القول بان الحياة دخلت المادة دخولاً وكل ما في الكون حولنا شاهدٌ على وحدة الكائنات وعلى ارتباطها الكلي بعضها ببعض . قال هيكل " نقصد بالنشوء العام ان في الطبيعة وحدةً جامعة تدفع الكون الى الترقي وان كل ما في العوالم من حركات الاجرام السماوية الى حركة الحجر الذي نرميهِ ومن حياة النبات الى قوى النفس حاصل بتفاعل الجواهر والقوَّة (١) " وقال ايضاً " ان اكتشاف الاحياء الميكروسكوبية المعروفة بالمونوا (Monua) دليل واضح على امكان حدوث التولد الذاتي فان هذه الاحياء على بساطتها التي لا بساطة بعدها حية تظهر فيها الحياة كما تظهر في غيرها من الاحياء ولا ريب ان كل الانواع نشأت من اصول كهذي " (٢) على ان هكسلي قد وجد في رأس شوكة القرّيص من صغار الدقائق البروتبلاسمية ما تحسب المونوا جواميس بالنسبة اليهِ وعندهُ ان من دقائق كهذي نشأنا كلّنا رجالاً ونساءً ولنسمع حجتهُ في ذلك

قال — " من يسمعني اصرّح بان حركات الفنجا والفورميزا (نباتات معروفة) ليست الاَّ بعض خواص المادة البروتبلاسمية يندهش وينسب قولي هذا الى الهذيان ولكنهُ لو علم ان البروتبلاسم المركبة هي منهُ هو عين البروتبلاسم في سائر الاحياء لما توقف عن التصريح بمثل ما صرّحت بهِ بل ولزاد على ذلك ان كل حركة حيوية هي خاصة من خواص القوى الكامنة في البروتبلاسم " (٣) اه

ان العقل لا يمكنهُ انكار ناموس الاتصال لانهُ يراهُ جليا في كل اجزاء الوجود فاذا

---

(١) Truths of Evolution

(٢) تاريخ الخليقة لهيكل ٧٥

(٣) Errors of Evolution

سلمنا بظهور الحياة بغتةً هتكنا حرمة هذا الناموس وهو مما لا يسلّم بهِ العقل ولو دقيقةً واحدة · اوَ ليس واضحاً ان مملكتي النبات والحيوان مشتركتان في الحيوية وقوة الحس نستنتج ذلك من عدم امكاننا ان نضع حدًّا فاصلاً بينهما فكيف يسوغ لنا ان نقول ان حياة النبات غير حياة الحيوان وان القوَّة الخالقة خلقت كلاًّ منهما خلقاً خاصًّا · واذا التفتنا الى الجماد رأينا ان ناموس الاتصال واضح فيهِ ايضاً اعتبر ذلك في المشابهة الكلية بين احط الاحياء وبين اقرب المركبات الكيماوية الى الحي فتكاد لا ترى ثمت من فاصل بينهما. نعم لم يستطع احد ان يعبر الهوَّة التي بين الجماد والحيّ ولم يستطع احد حتى الوقت الحاضر ان يولد الحياة توليدًا اصطناعيًّا ولكنَّ ذلك لا ينفي القول بهِ ولا يزعزع الرأي القائل بان الحياة قوة مادية او كما قال سبنسر ”وفاق تام بين الاحوال الخارجية والاحوال الداخلية“ وهوذا العلم نفسهُ يصرّح بان ما نسميهِ قوةً حيويَّة ليس الاَّ قوى كيماوية · تتغيّر بتغيّر الفواعل الفاعلة فيها · وكما ان الآلة لا تستطيع ان تخلق قوةً جديدة كذلك الجسم فانهُ يأخذ القوى من المحيط ويكيّفها بحسب الاحوال · فالمشي والعدو والتسلق والجذب والدفع والتنفُّس والهضم وغيرها ليست الاَّ حركات ميكانيكية كيماويَّة وما القوَّة التي نراها في العضلات الاَّ القوَّة التي كانت في الطعام والشراب · قال هربرت سبنسر ”امس كان العلماء يجزمون بانهُ يستحيل اصطناع مركب آليّ اما اليوم فقد بطل وهمهم في ذلك لاسيما وقد تمكنوا من صنع الوف من المركَّبات الآلية ولا يبعد انهم يتمكنون من صنع اكثرها“ اه

وقال هكسلي في كلام لهُ عن اصل الحياة · ”ان وجود الحياة متوقف على وجود بعض المواد الطبيعيَّة كالحامض الكربونيك والماء والنشادر فاذا انتزعتَ احدى هذه المواد ذهبت بالحياة اجمع · ومن المعلوم ان البروتبلاسم موَّلف من كربون وهيدروجين واكسجين وكلٌّ من هذه الثلاثة جامد لا حياة فيهِ فاذا سأَل سائل كيف تهيأَ للحياة ان تنبعث مما لا حياة فيهِ قلنا كيف تهيأ للماء ان يتولد من الهيدروجين والاكسجين ولا اثر للمائيَّة في احدهما — انقول ان المائيَّة اتت من حيث لا نعلم ودخلت في اكسيد الهيدروجين حالما تمَّ تركيبهُ ام نقول ان المائية خاصة من خواصّ المادة تظهر في تركيب خصوصي كالاكسيد المذكور · واذا لم نستطع ان نقول ان المائيَّة دخلت في مركب الاكسجين والهيدروجين فماذا يسوغ لنا ان نقول ان في بعض التراكيب الخصوصية تدخل الحياة دخولاً وانهُ متى تمَّ تركيب البروتبلاسم دخلت الحياة من الخارج واستقرت في بيتها الجديد · أليس ذلك مجرد تحكم ومحض مكابرة أوَ ليس الاولى ان نقول ان الحياة ناتجة من تركيب خصوصي في المادة“ اه

هذا ولقد بطل ما كان يزعمهُ الخلقيون من خلق الانواع دفعةً واحدة ورجعوا الى القول بان الانواع من اصل واحد بسيط او من اصول قليلة ولكنهم توقفوا عن عبور ما بين اصل الاصول والجماد وتركوا الماديين وحدهم يجتازون على جسر ناموس الاتصال الذي المعنا اليهِ سابقاً

الحياة ” هي البروتبلاسم ليس الاَّ وكل مظاهرها ناجم عن حركات تلك المادة الغريبة الشاملة الاحياء . ولم يرَ العلماء في تجاربهم حتى الآن سوى العناصر الكيماوية . نعم لم يتمكنوا من توليد الحياة اصطناعيًّا وقد لا يتمكنون من ذلك لعسرهِ ولكنهم لا يرون في الحياة غير قوة من قوى المادة . قال زهاوي زاده جميل صدقي افندي في كلام لهُ عن التولُّد الذاتي[^١] ” وربما سلَّم بعض الحيويين بالترقي والنشوء للآليَّات الاَّ انهُ يبقى مصرًّا على عدم التسليم بان الحياة نوع من القوى الطبيعيَّة او هي تحوّلٌ عنها . والمحققون على انها قوة من القوى الطبيعيَّة للدلائل التي تدل بمجموعها على صدق الدعوى وان كانت ضعيفة بالنظر اليها واحدًا واحدًا . والاكثر على انها فوق الطبيعة لمجرّد ان المثبتين لا يستطيعون ان يستخرجوا اليوم من الجماد حيوانًا او نباتًا . وليت شعري كيف يمكن لهم ان يتصوروا الشيء خارجًا عن الطبيعة وهل يوجد محل خارج عن الطبيعة حتى يمكن ان يَردَ منهُ الشيء فيحل في الطبيعة ثم يخرج منها اليهِ . الم يكفِ المخالفين اقناعًا ان كثيرًا من الامور التي كانوا يظنونها خارجة عن الطبيعة اكتشف اخيرًا حقيقتها فاعيدت الى محلها في الطبيعة ” وما ادراك لعلَّ الحياة ايضاً من تلك الامور واذا لم تكن الحياة من نوع القوى الطبيعيَّة فكيف تتحول الواحدة منها الى الاخرى . . . . ايريدون ان يصنعوا بايديهم اليوم مادة حيَّة من الجماد راسًا حتى يصدّقوا . كلاَّ فان الزمان الذي يتهيأُ فيهِ هذا ربما كان بعيدًا لما ان حقيقة الحياة لم تكشف بتمامها في الحاضر وجلُّ ما يظنهُ العلماء انها والقوى الطبيعيَّة في الاصل واحد

” لا اخال العلماء يقولون بالحدوث والاعدام للاشياء في الحاضر فجميعهم قائلون بالبقاء وعلى هذا فأسالكم اذا مات حيوان فمن المحقق ان الحياة لم تبقَ فيهِ وحيث انها لم تعدم فلا بدَّ انها ذهبت فلننظر كيف يمكن لها ان تذهب . واذا وضعنا الحيوان المذكور في قنينة سميكة الجدران مسدودة سدًّا محكمًا ومات فيها كيف تذهب حياتهُ . فهي لكونها لا تعدم لا بد انها تفارق جسدهُ وتذهب واذا ذهبت فعلى اي كيفية تخرج من القنينة . هل تنفذ

---

[^١]: (١) المقتطف مجلد ٢٠ ص ٩٠٠

مسامّ القنينة وتخرج كذلك فاذن هي جسم كالاجسام او انها تهز جدران القنينة او الاثير المتخلل مسامها فهي اذن حركة وقوة كسائر القوى ولا يتصدر خروجها الّا احدى هذه الكيفيات . اه "

وكلام الماديين في نشوء الحياة من الجماد كثير وانما اكتفيت بهذا النذر القليل حبًّا بالاختصار . ولنتقدم الآن الى الفصل الثالث من موضوعنا وهو يبحث في ان العقل كالحياة قوة من قوى المادة

العقل

وكما ارجع الماديون الحياة الى المادة هكذا ارجعوا العقل الى حركات في الدماغ وقالوا ان لافرق بين المظاهر العقلية والقوى الحيوية وان لا فصل في الخط الذي يصل الاميبا والبرتوجونا بافلاطون وشكسبير

العقل قوّة مستقرّة في الدماغ وهي تتحوّل الى غيرها من القوى الطبيعيّة . فالحرارة والنور والحركة مثلاً قد تتغير فتصير شعورًا وفكرًا والعكس بالعكس . والمادة لم تكتسب حركتها وقواها من الخارج بل هي ازلية فيها فما الذي يحمل البعض على القول بان للكون روحًا شاملة هي اصل الحياة او ان للفرد نفسًا خاصة هي مبعث العقل . العلّ المادة مرسح فقط تظهر فيهِ القوى وتمثل ادوارها ام هي منشأُها وعلة وجودها . ولا يُستفاد من ذلك ان الفكر خاصة من خواصّ المادة العامة . كلاً فانهُ كما ان الذوق لا يكون الّا في اللسان والشم في الانف والمرارة في الكبد هكذا الفكر لا يوجد الّا في عضوٍ خاص بهِ وهو الدماغ(1) . قال دافد هارتلي " ان اختلاف النفس عن الجسد عرضيّ لا جوهري فان التجارب الصادقة ترينا ان العلاقة بين الجسد والنفس كلية ومن المستحيل ان يتفاعل شيئان مختلفان في الجوهر — اني ارى العالم الماديّ كالسلّم درجات درجات فاذا بدأنا بالحجر الذي هو احطّها ثم شرعنا نصعد الى النور الذي هو اعلاها وبعبارة اخرى اكثرها روحًا وحياةً رأينا الفرق بين الحجر والنور عظيماً الى درجة يعسر فيها تصوُّر كونهما مادة على السواء ومع ذلك فنحن لا ننكر مادية النور بل لا نقول بفرق بين الحجر والنور من جهة الجوهر . فماذا يمنعنا عن الصعود الى ما فوق النور حتى نصل الى العقل فان الفرق بين الشعور والنور اقلّ منهُ بين النور والحجر " اه

قال الماديون بمادية العقل وهم يستندون في ذلك كما المعنا سابقًا الى ناموس الاتصال

---

(1) تولند . تاريخ الفلسفة لوبر

فلا يرون من فصل في هذا الوجود —النبات متصل بالحيوان والجماد بالنبات — اذ بذلك تتمُّ الوحدة الرابطة الكائنات بعضها ببعض والقول بفصلها واستقلالها لا يقبلهُ الباحث المدقق اعتبر ذلك في احطّ الحيوانات المعروفة فترى انها بسيطة جدًّا لا اعضاء لها ولا اعصاب ومع ذلك فلها قوة الحسّ التي تمكنها من القيام بامر حياتها وانك لترى كلما ارتفعت في سلم الاحياء ان ارتقاء الجهاز العصبي مطّرد وان القوى النفسانيَّة متوقفة في ظهورها على درجة ارتقاء الجهاز العصبي وهذا التوقُّف او هذه العلاقة كلية بحيث لا يمكن وجود العقل والادراك الَّا متى بلغ العصب من الارتقاء مبلغًا عظيمًا جدًّا . فبدلاً عن ان يكون الجسم خليَّة واحدة او مجموع خلايا قليلة كما هي الحال في بعض الاحياء الدنيئة كالبروتوزوى والمونوا والاسفنج نراهُ يتقدَّم حتى يصير ذا اعضاء مستقلة ثم يظهر فيهِ العصب الواحد ويتقدم العصب بتقدم الحيوان ويتفرَّع الى اعصاب كثيرة ثم يرتقي ويتزايد حتى يصل في الفقريات الى الجهاز العصبي العظيم البالغ في الانسان اعظم اطوار ارتقائهِ

ثم ان الدماغ درجات فمنهُ الصغير والمتوسط والكبير ومنهُ البسيط والكثير التركيب على مقتضى ارتقاء الفرد الحيّ وعلى درجة تقدمهِ في ميدان النشوء العام . واعظم الادمغة وارقاها دماغ الانسان فان فيهِ من التلافيف والصلات ما لا يوجد في غيرهِ من سائر الحيوان . واذا هبطنا من الانسان الى ما دونهُ من الحيوان رأينا الدماغ يصغر تدريجًا حتى لا نعود نرى لهُ من اثر في الحيوانات التي لافقار لها . بل نرى هنالك عوضًا عنهُ العُقد العصبيَّة متفرقة في الجسم على ابعاد مختلفة . وتقل العقد والاعصاب كلما هبطنا حتى نصل الى حيث لا عصب ومع ذلك نرى ان الحيوان لا يزال يتأَثر من المحيط ويتحرك بحسب المؤثرات الفاعلة فيهِ . فكيف ذلك وكيف نرى علاقة العصب بالقوَّة المنبعثة منهُ ولا نقول بان هذه القوة خاصة من خواصّ البروتبلاسم . الحسّ من خصائص البروتبلاسم وهو مما يشترك فيهِ الحيوان والنبات وتتوقف قوَّتهُ على مقام الفرد الحيّ في عالم الاحياء واليهِ ارجع الماديون كل المظاهر العقلية والغرائز الداخلية . فقالوا في الغريزة مثلاً انها نتيجة الاختبار المكرَّر . فان من الفواعل الطبيعية ما هو محبوب ومنها ما هو مكروه فاذا تأَثر حيوان لفاعل مكروه اندفع عنهُ واذا تكرر ذلك المؤثر تعلَّم الحيوان ان يكرههُ وهذا الكره يتقوى ويتوارثهُ الخلف عن السلف فيصبح غريزةً او ملكة فيهِ

من ينكر قوَّة الفهم والادراك في الحيوان ألا ترى ان الثعلب يقيس ويستنتج وبعبارة اخرى يتفلسف وليس لديهِ الَّا الشعور بالمؤثرات الخارجية . نعم لا يستطيع ان يجرّد لان

التجريد يقتضي جهازًا عصبيًّا اكثر تركيبًا وملاءمة لذلك · واذا كان الحيوان (وليس لهُ الاّ الحسّ) يقرن الحوادث بعضها ببعض ويدرك بواسطة الاختبار ما يهمهُ ادراكهُ من ماجريات الكون فلماذا نجعل عقل الانسان مستقلاً او لماذا نخلق فيهِ نفسًا تستقرُّ في الجسد وتبعث اليهِ بالعقل هبةً من النفس الشاملة · هل الانسان من فلتات الطبيعة شاذٌّ عن مجرى الكون او هو من هذا العالم خاضع للنواميس التي يخضع لها سائر الاحياء · ان العقل يقوى بقوة الاعصاب ويمرض بمرضها بل يموت بموتها وهذا مناقض لمبدإ استقلالهِ اذ ان ذلك يقتضي كونهُ كاملاً في البساطة والكامل في البساطة كيف ينمو ويقوى ويموت ؟ قال احدهم " اذا كانت النفس غير ماديَّةٍ فلا حيز لها وما لا حيز لهُ لا يوجد في مكان فهو غير موجود "

جاء اسبنسر في فلسفتهِ الادبيَّة قولهُ (١) — " العقل عبارة عن الشعورات الناشئة من المحيط وعن علاقات تلك الشعورات بعضها ببعض. فالشعور الاول بسيط جدًّا وعملهُ الحركة الانعكاسيَّة ولكنهُ يزداد تركيبًا كلما ازدادت المؤثرات وكلما كثر الاختبار · اما الفعل الانعكاسي فهو انتقال التأثر من عصب الحس الى عصب الحركة رأسًا بدون توقف · فاذا حدث التوقف وذلك عند ازدياد العلاقات والشعورات في الاعصاب الحسَّاسة صار عدد الصور الناشئة عن ذلك كبيرًا جدًّا بحيث يتعذر انتقالها الى اعصاب الحركة بدون توقف قليل وهذا التوقف القليل قبل الحركة هو الفكر · وكلما ازدادت المؤثرات وكثر تركيب الشعور والصور المسببة عنها طال التوقف او الفكر حتى تصل في ذلك الى حالة الحكم والتمييز وهي الحالة التي تتمكن فيها بعض الصور من النظر الى بعضها ومن التأثر المتبادل " اه

فنستنتج من ذلك ان العقل اولهُ وآخرهُ الشعور وان الشعور مسبَّب عن تأثر العصب من المحيط واما القول بان العقل جوهر مجرد عن المادة فمما لا يوافقنا عليهِ العلم اذ لا وجود لغير المادة في عالم الوجود · اعتبر ذلك في الادلة الآتية (٢)

(١) ان النفس تنمو بنموّ الجسد وتتكامل قواها بتكامل قواهُ فاعضاء الجسد تتكامل الدنيئة منها اولاً فتفعل افعالها ثم التي فوقها كذلك ولا تزال تتكامل حتى تصير كفأً لقضاء كل اعمالها · وينشأ الجسد ثم ينمو حجمًا وقوةً حتى يأتي طور الانحطاط فينحطّ وفي غضون ذلك تشرع النفس في النمو ولا تزال تتقوَّى وتنمو حتى تصير كفأً لقضاء اعمالها

---

(١) المجلد الاول ص ١٠٤ من Synthetic philosophy باب الفلسفة الادبية

(٢) نقلت بتصرُّف قليل عن مذهب الماديين في المقتطف السنة الخامسة ص ١٦٢

(٢) ان النفس لا تكتفي بمقارنة الجسد والنمو بنموهِ بل تعتمد عليهِ ايضاً للحصول على المعرفة وما يتلو تلك المعرفة من الانفعال اللذيذ او المؤلم كالانبساط والانقباض

(٣) انها والدماغ سيّان فانهُ اذا اصاب الدماغ ما يغيّر تركيبهُ او يحبط اعمالهُ او اذا قطعت اعصاب من اعصابهِ فربما جُنّ الانسان وذهب عقلهُ فينقلب ما نسميهِ نفساً فيصير ذاتاً اخرى تعاكس تلك في طبعها كما يستدل من انعكاس افعالها . والخلاصة انَّا لا نعلم بوجود النفس (او العقل) غير مقارنة للجسد ولا دليل لنا من البحث والمشاهدة على وجودها كذلك وان النفس تنمو بنمو الجسد وتعتمد عليهِ في ادراكها وانفعالها وترتقي بارتقائهِ وتضعف بضعفهِ . ويترتب على ذلك ان النفس فعل من افعال الجسد وان جوهرها جوهر الدماغ وبهذا يتضح سبب نموها بنمو الجسد واعتمادها عليهِ في الادراك . واما كونها جوهراً غير مادي فلا يحل مشكلاً من المشاكل ولا يقنع عقل العاقل — انتهى باختصار —

سأل العقليون كيف يصير الشعور عقلاً وكيف تتحول التأثيرات الخارجية الى عواطف داخليَة وقاموا يندّدون بالقائلين بذلك وقد فاتهم ان ناموسي بقاء القوة واستمرارها يفسران ذلك باجلى بيان فانهُ كما ان النور والحرارة ضربان من الحركة هكذا الشعور والفكر والارادة وغيرها ضروب من الحركة يتحول بعضها الى بعض طبقاً لناموس بقاء القوة

اما الارادة فيرجعون بها الى الاميال والعواطف التي تنشأ من الشعور . ولما كانت الاميال متباينة القوى كان لا بد لاحدها ان يكون الاعظم فيها قوة وتأثيرًا . والارادة انما هي اتباع هذا الميل الاعظم فهي مقيدة بمثل ما تتقيد بهِ سائر الاميال . انظر الى نفسك حينما تعمل عملاً فترى انك مدفوع الى ذلك العمل بعلل كثيرة وهذه العلل اما ان تكون خارجيَّة تأتيك من المحيط رأساً او داخليَّة تمرّ منها على عدة اسباب حتى تصل الى السبب الاول وهو المحيط فالمحيط كل شيء ومهما اراد الانسان فهو انما يريد مدفوعاً بما لا قبل لهُ على عصيانهِ

هذا ما يوصلنا اليهِ البحث والمقام اضيق من ان اسهب في رد كل مظهر عقلي الى اسباب خارجيَّة لاني لا اقصد في كلامي الليلة الاَّ مختصر معنى الماديَّة على طريقة واضحة بحيث يتناول العقل القصد المراد منها لا سرد الادلة والبراهين في تقريرها ولا لبسط التجارب في شرح مشاكلها وغوامضها

بقي عليَّ امر لا بد لي من ذكرهِ في هذا الباب وهو (الوجدان الذاتي) او الشخصيَّة . فالمعترضون يقولون لو فرضنا ان النفس مؤلفة من جواهر فردة فكيف تم لتلك الجواهر

العديدة ان تصير ذاتًا واحدة تشعر بوجودها وتدرك ما هو خارج عنها . ومع عظم اهمية هذا الاعتراض فهو لا يفند شيئًا من المبادىء المادية اذ ان مثل هذا الاعتراض يعترض على العقلية نفسها فكيف تجيب لو سُئلت كيف تم للصور العقلية ان تصير صورة واحدة . ذلك سرٌ لا المادية تفسره ولا العقلية تفسره وجل ما للماديين في ذلك قولهم (١) ان بين اعصاب الحس واعصاب الحركة علاقة داخلية فاذا كانت تلك العلاقة منظمة جدًّا اي قد تكرر حدوث الفعل فيها مرارًا عديدة كانت الحركة انعكاسية والاَّ فهي وجدانية بمعنى انها تقتضي توقف الصور عن المرور فتقع تحت حكم الفكر والارادة . فالوجدان هو الحالة التي تكون فيها العلاقة بين عصبي الحس والحركة غير كافية لمرور الشعور في طريقة يكون العقل بها انعكاسيًّا

جاء للويس في كتابهِ مسائل الحياة والعقل ص ١٩٦ ما يأتي :— الشعور ثلاثة انواع — شعور الحس وشعور الفهم وشعور الارادة . ولا يفرق الشعور العام عن الوجدان العام الاَّ التمييز ولكن التمييز نفسهُ شعور يفوق ما سواهُ في التأثير والقوة . فالوجدان هو الشعور نفسهُ في حالة يرى بها ما سواهُ من الشعورات الذاتيَّة او الشخصيَّة فما هي الاَّ مجموع الصور العقليَّة مجموع تتحد فيهِ صفات كل صورة ويكون من اتحادها فرد او حال . ومَثَلُ هذه الشخصية مَثَل مركز الجاذبية في جسم ما فانهُ كما ان لكل جزء من الجسم ثقلاً خاصًا ومركزًا خاصًا وان لمجموع الاجزاء ثقلاً هو مجموع اثقالها ومركزًا هو ملتقى مراكزها هكذا لكل صورة من صور الدماغ مركز . ولكن مركز المراكز هو الوجدان الذاتي وكما يتغير مركز الجاذبيَّة بتغير الاجزاء هكذا يتغير الوجدان بتغير الصور العقليَّة . وقال سبنسر ايضًا

" ان الصور المولدة في الدماغ لا بدَّ لها من رابطة او مركز عامّ تمرّ فيهِ فكلما ازدادت الصور قلّ الوقت اللازم لمرور كل صورة على حدة فصارت الصور تمر متلاحقة متماسة وحدث من ذلك خط من الصور متصل هو الوجدان الذاتي او النفس

فالنفس حاصلة من تلاقي القوى العقليَّة فاذا فني الدماغ وفنيت المظاهر العقليَّة فني العقل وتلاشت النفس

هذي هي مبادئ الماديين فلنتقدم الى الرد عليها مختصرين في الرد ما اختصرنا في الكلام عنها

(ستأتي البقية) انيس الخوري

---

(١) سبنسر

تجارة مصر منذ مئة عام

يعلم قراء المقتطف حال التجارة المصرية الآن مما ننشره لهم عاماً بعد عام . وقد اطلعنا على كتاب للمسيو جيرار الذي كان رئيساً لهندسة الجسور والطرق في زمن الحملة الفرنسوية وصف فيهِ احوال القطر المصري الزراعية والصناعية والتجارية فرأينا ان نقتطف المقالة التالية من قسمهِ التجاري

(١) التجارة الداخلية

لا اهميَّة للتجارة بين اسنا والشلال الاول لان الاهالي هنالك فقراء يكدحون وراء رزقهم اليومي وينقلون النزر اليسير مما يستغنون عنهُ من لوازم المعيشة في قوارب يسيرونها في النيل الى الجهات القريبة منهم . غير ان مدينة اسنا وهي محطّ رجال البكوات المنفيين تفوق ما يجاورها من المدن في اهميتها التجارية لاسيما وان العرب الضاربين في الصحاري المجاورة من العبابدة والبشارية يختلفون اليها لشراء حاجاتهم من مثل القطاني والارزّ والحديد والاقمشة التي يبدلونها بجمال وفحم وصمغ وعبيد مما يقع لهم الاستيلاء عليهِ إما في الصحراء وإما خطفاً من قلب افريقية

ويكثر في اسواق اسنا الزبدة والجبن والحبوب والدجاج والحمام والخضر والصوف وغزل القطن جميع ذلك يرسل اليها من الجهات القريبة منها فضلاً عما يرد اليها من مصر واخصهُ الحديد والرصاص والنحاس والصابون والارزّ . وفيها مستودعات لواردات سنّار من ريش النعام والعاج والابنوس وصغار العبيد الذين لا يمكثون فيها الاَّ ريثما يتهيأ ترحيلهم الى القاهرة ويرسل منها الى مصر مقادير وافرة من زيت الخسّ والتمر والفحم والسَّنا والشبَّة وقليل من الحبوب

واجرة قنطار الزيت (١٣٢ رطلاً) من اسنا الى القاهرة ٤٠ مايدة (٥ غروش صاغ) واجرة قنطار البلح (٢٥٠ رطلاً) ٨٠ مايدة ويصدر منهُ من النوبة وغيرها بطريق اسنا نحو خمسة آلاف قنطارٍ سنوياً . واجرة قنطار الفحم ٣٠ مايدة الى مصر حيث يباع القنطار بزرَّين محبوب (اي ٣٦٠ مايدة)

واكثر ما تنقل البضائع الى مصر بالنيل في مراكب ملاحوها من البرابرة . وسواد التجار يفضلون طريق النيل لانهُ اقل تعرُّضاً لسطو الاشقياء وغزو الغزاة من العرب

ويلي اسنا في الاهمية التجارية في اعالي الصعيد بلدة قوص من حيث يرسل الشال الصوف الابيض الى مصر و يصدَّر القمح الى بلاد العرب بطريق القصير

وتقام في كل اسبوع اسواق للبيع والشراء في جميع مدن الصعيد أهمها سوق مدينة الفيوم التي يأْتيها الاهالي والعرب من جميع الانحاء المجاورة يتبادلون فيها السلع والمأْكولات . وتضرب على هذه الاسواق رسوم يتقاضاها البك المتولي امر الجهة التي تقام فيها اوالكاشف الحاكم عليها . وكان الرسم المضروب على سوق مدينة الفيوم ١٤٠٠٠٠ مايدة (كل ٨ مايدات نحو قرش صاغ) سنويًّا ولكن المتعهدون يضربون رسومًا مختلفة على كل ما يدخل الى هذه السوق فيبلغ ما يأْخذونهُ سنويًّا نحو ١٧٠٠٠٠ مايدة . فكان رسم الدخولية ١٠ مايدات على كل اردب قمح ولا شيءَ من الرسوم على الاقمشة القطنية والصوفية والقطن المغزول لان الحاكة يدفعون رسومًا خاصة بحرفتهم فتُعفى لذلك مصنوعاتهم من سائر الرسوم . ومعدل الربا في الفيوم ١٠ في المئة سنويًّا

وفي القاهرة اسواق عديدة لبيع المأْكولات وغيرها . ولهذه الاسواق شرطي يسمونهُ الآغا يتفقدها كل يوم راكبًا حصانهُ يتقدمهُ وزَّانٌ حامل ميزانًا كبيرًا وسَنجًا مختومة ويتبعهُ نفر مسلحون بالعصيّ . فاذا تقدمت اليهِ شكوى من شارٍ يشكو بها نقص الوزن يأْمر وزَّانهُ الخاص بتحقيق ذلك امام حانوت البائع فان وجد اعوجاجًا في البائع احالهُ على أتباعهِ يقوِّمون اعوجاجهُ بعصيّهم . فيتألَّب حولهُ الباعة جيرانهُ يهتمُّون بأمرهِ و يدخلونهُ الى دكانهِ مطيبين خاطرهُ حتى اذا جاءَ دور احدهم في الانطراح تحت عصيّ رجال الآغا يعاملهُ هو بنفس هذه المعاملة

وقد تجري شُرَط الاسواق على هذه الخطة في المدن الاخرى المهمة ولكن بطريقة اقلّ انتظامًا

وتمتاز طنطا عن جميع مدن الوجه البحري باتساع اشغالها واهمية اسواقها وموالدها السنوية ولاسيما مولد السيد احمد البدوي الذي يعلن الباشا الحاكم يوم افتتاحهِ بفرمان يرسلهُ الى المديريات السبع وهي : الصعيد والجيزة والبحيرة والمنوفية والغربية ومديريتي الشرقية . فتزدحم الجماهير في وكالات الجامع الاثني عشرة وفي الاسواق والارباض تغشاها الخيم . وكان امر البوليس منوطًا بكاشفين ترسلهما مديريتا المنوفية والغربية فيشرفان على الاسواق الغاصَّة بالمواشي والماكولات وضروب الاقمشة البلدية والاوربية والهندية يؤْتى بها من الاسكندرية والقاهرة . ويحافظان ما امكن على الأَمن وهو كما ذكرنا قبلاً عرضة لان

تعبث بهِ العرب والاحزاب المتعادية . وتقام ايضاً اسواق على جانب من الاهميَّة في محلة مرحوم وسمنود . وتعتبر المنصورة نقطة الاتصال بين القاهرة ومدينتي دمياط ورشيد حيث مخازن البضائع الاوربية والسوريَّة

اما الامن في الوجه البحري فمختلٌّ في الداخلية اذ لا وجود للبوليس الاَّ في المدن المهمة وعلى الشطوط والاطراف حيث تكثر تعديات العرب

(٢) التجارة بين مصر وداخلية افريقية

تقوم القوافل التجارية في اوقات معينة الى مصر من دارفور وسنَّار وفزَّان وهاك بيان امر كلٍّ منها

قافلة دارفور

تحمل هذه القافلة الى الديار المصريَّة العاج والتمر الهندي والقرَب من جلود الجمال وريش النعام والششم والكوابيج والصمغ والشبَّة والنطرون وبعض جلود النمر الخ . غير ان معظم تجارتها بالرقيق الاسود صبياناً وبناتاً بعضهم يختطفهُ النخَّاسون من قرى دارفور وبعضهم يؤخذون اسرى في الحرب . ويباع الرقيق في القاهرة بما يساوي الآن خمسين ريالاً مصريًّا (١) والخصي منهم بمضاعف ذلك وفي دارفور نفسها يدفع الجلابون على روايتهم ثمن الرقيق الواحد اربع شقق او خمس من قماش الكتان الاسيوطي او من قماش القطن المحلاوي

وتؤلف القافلة من خمسة الاف جمل تقطع المسافة بين دارفور واسيوط في ٤٠ او ٥٠ يوماً . وبما ان آبار المياه في الطريق بعيدة بعضها عن بعض ومدة السفر طويلة يخصص الجلابون وهم ارباب القوافل نحو ثلث جمال القافلة لحمل الماء والتمن فقط لحمل البضائع والباقي لاغراض مختلفة من مثل الركوب ونقل الذخائر والمؤَن واحمال الجمال التي تُعقر او تموت في الطريق

وكان لا يسمح للقافلة ان تتخطى اسيوط الاَّ بعد دفع الرسوم التي يبين مقدارها كاشف الواحات الخارجة لقيِّم القافلة وهذا يتقاضى من كلٍّ من الجلابين السهم الذي يلحقهُ من ذلك . وكانت الضريبة على كل رأس رقيق نحو ٧٠ غرشاً صاغاً وعلى الجمل نحو ٣٥ غرشاً صاغاً . وتؤخذ ضريبة ثانية على القافلة في القاهرة تساوي ربع هذا الرسم عدا رسم الدخولية في مصر العتيقة بواقع ١٢ غرشاً على الجمل . ويدخل مصر سنويًّا من دارفور بين خمسة آلاف وستة آلاف رقيق اربعة اخماسهم جوارٍ . ويرأس كل قافلة قائد من قبل

---

(١) نستعمل في ما يأتي قيم العملة الحالية

ملك دارفور يستولي على مرتب من الجلابين وهو ٣ غروش عن كل جمل و٧ غروش عن كل رقيق

اما مقادير البضائع التي تنقلها قافلة دارفور سنويًّا الى القاهرة ومتوسط اثمانها فبوجه التقريب كما يأتي :—

عاج ٤٥٠ قنطارًا ثمن القنطار ٩ جنيهات
تمر هندي ٦٠٠ قنطار. ثمن القنطار جنيهان
صمغ عربي ١٥٠٠ قنطار والقنطار منها ١٥٠ رطلاً ثمن القنطار ٤ جنيهات
شَشم ٦٠٠ قنطار ثمن القنطار ٦ ريالات
كرابيج ٣٠٠ كرباج ثمن الكرباج ٧ غروش
ريش نعام ٢٥ قنطارًا ثمن قنطار الاسود منهُ ١٧ جنيهًا والابيض نحو سبعة اضعاف ذلك
قِرَب من جلود الجمال والثيران ٤ آلاف زوج ثمن الزوج ٤ ريالات
نطرون الف قنطار (القنطار ١٢٠ رطلاً) ثمن القنطار ٦ ريالات
شبّة ٢٠٠ قنطار (القنطار ١٥٠ رطلاً) ثمن القنطار ريال ونصف وهي تستخرج من قاع البحيرات والمستنقعات في دارفور

وقد تستغرق إقامة الجلابين في مصر اكثر من ستة اشهر يستبضعون في اثنائها ما يلزم لهم من السلَع البلديَّة والاوربيَّة من مثل الاقمشة والخرَز الملوّن والدمالج والحديد والرصاص والنحاس والسلاح والبارود والحلى الفضيَّة الخ

وفي هذه الاثناء يبيعون معظم جمالهم فلا يبقون منها الاَّ ما يلزم لرجوعهم . وفي عودتهم يدفعون في القاهرة رسماً قدرهُ ٥ ½ غرش عن كل جمل محمَّل

قافلة سنّار

تسير قافلة سنّار في طرق متشعبة تنتهي الى ابريم في النوبة ومن هناك تتابع السير الى دارفور فاسنا حيث تحطّ رحالها زمناً يتمكن فيهِ الجلاَّبون من بيع جانب من جمالهم وبضاعتهم ثم تقلع القافلة ببضاعتها في النيل الى القاهرة وفي اجتيازها النيل تدفع ضريبةً في منفلوط قدرها ثلاثة غروش صاغ عن كل رأس رقيق واخرى في المنيا وضريبةً ثالثة في بولاق . غير ان كلاًّ من الضريبتين الاخيرتين يساوي نصف الضريبة الاولى

والذي يختلف من محمولات هذه القافلة عمَّا تقدم ذكرهُ في الكلام على قافلة دارفور

هو الرفيق الحبشي الذي تحضر هذه القافلة عدداً قليلاً منهُ فيباع باكثر من غيرهِ والتبر ومقدارهُ قليل ايضاً وتباع الاوقية منهُ في مصر بنحو اربعة جنيهات ونصف

قافلة فزّان

بلاد فزّان في داخل بربرا على بعد عشرين يوماً من طرابلس الغرب واربعين من القاهرة وفيها نحو اثنتي عشرة قرية يختلف بعدها عن طريق القافلة بين نصف يوم وثلاثة ايام. وهي في فيافٍ قلما يقع فيها المطر فتسقى بالآلات . واهلها مسالمون متحضرون يربّون المعزى والجمال والحمير وليس عندهم خيل ولا غنم

وفي يوليو سنة ١٨٠٠ حضر شيخ قافلة فزّان الى القاهرة ومعهُ ثمانية تجار وثمانية جمّالة معهم خمسة وعشرون جملاً ستة منها محملة بضاعة طرابلس الغرب من طرابيش وبرانس واحرمة صوفية وعشرة محملة تمرًا وما بقي للزاد ونحوهِ من لوازم السفر . وكان جميع رجال القافلة عزلاً من السلاح مع ان قبيلة اولاد علي كانت قد سلبت القافلتين السابقتين عند حدود مديرية البحيرة

ويغلب ان يكون التجار المرافقون لهذه القافلة من الحجاج القاصدين مكة فيحضرون معهم شيئاً من الاقمشة الطرابلسيَّة يعتاضون بارباحها عن بعض نفقاتهم

وتعود القافلة ببعض الاقمشة الكتانية والارزّ اما الحاجات الاخرى فتشتريها من طرابلس الغرب

اختراق افريقية

اشرنا في العام الماضي الى رحلة صديقنا المستر سفدج لندر واختراقهِ افريقية من شرقيها الى غربيها في طريق لم يسر فيهِ احد من الاوربيين قبلهُ . وقد بعث الينا الآن بخطبة تلاها في الدار العلمية الملكية ببلاد الانكليز فرأينا ان نقتطف منها ما يلي قال

لقد اخترقت افريقية من شرقها الى غربها في اوسع عرض منها وقضيت في ذلك ٣٦٤ يوماً في الحل والترحال واضطررت ان اعرّج مرارًا واسير في طرق ملتوية فبلغت المسافة التي قطعتها ٨٥٠٠ ميل. قمت من جبوتي في املاك فرنسا وقطعت بلاد الحبشة الى نهر بارو وزرت القبائل النازلة الى الشمال والجنوب من نهر السبت وهو امتداد نهر بارو وكان سفري كلهُ على الخيل والبغال الى ان وصلت الى النيل على سبعين ميلاً من كدك (فشودا) جنوباً

ومن ثم قطعت بحر الغزال والحراج التي تليهِ الى نهري مبومو واو بنغي في بلاد الكنغو الفرنسوية وزرت في طريقي ولاية الكنغو الحرَّة . ولما وصلت الى حيث ينحرف نهر اوبنغي الى الجنوب سرت في جهة شمالية غربيَّة مع جماعة من رجالي نحو بحيرة شاد وعبرتها ولكنني لم اواصل السير هناك غربًا بل ارتددت شرقًا لاني اردت ان اتفحص بعض المنخفضات في صحراء الكانم وزرت في طريقي بعض القبائل النازلة شمالي بحيرة شاد وعبرت بلاد الشناتي ودرت جنوبًا الى ان وصلت الى الطرف الشمالي الشرقي من بحيرة شاد وقطعت ٨٥٠ ميلاً من الصحراء راكبًا على الجمال الى ان وصلت الى النيجر بطريق سوق زندر ثم سرت بقارب ٦٨٠ ميلاً فوصلت الى مدينة تمبكتو وواصلت السير في النيجر وعبرت نهر السنغال الى ان وصلت الى الراس الاخضر وهو ابعد نقطة من افريقية غربًا

وقد استعملت في رحلتي هذه كل انواع المطايا الخيل والبغال والحمير والثيران والجمال والقوارب الخشبيَّة والحديديَّة والارماث . ولم يكن معي في وقت من الاوقات اكثر من ثلاثين دابَّة للحمل ولا اكثر من اربعين رجلاً . ولم اكد اقطع ثلث هذه المسافة حتى فارقني كل رجالي وذلك في اصعب الاماكن في قلب افريقية ولم يبقَ معي الاَّ رجل واحد من اهالي الصومال فاحتلت انا وهو على تسيير قافلتنا وعبور الحراج بها وكانت الامطار تتدفَّق علينا تدفُّقًا واستخدمت رجالاً غير الذين تركوني ولكني لما مررت في بلاد التوارك لم يبقَ معي منهم سوى ثلاثة وست جمال وجُنَّ اثنان من الرجال . وكنا نقطع ٢٣ ميلاً كل يوم والعادة ان اصحاب الرحلات لا يقطعون هناك اكثر من عشرة اميال في اليوم . واطول مدة استرحت فيها ١٢ يومًا لما بلغت النيل وعشرة ايام في تمبكتو

وكان اكثر سيرنا في بلاد وبيئة انتشرت فيها الحمَّى الملاريَّة ولما وصلت السنغال كانت الحمَّى الصفراء ضاربة اطنابها فيها . ولما بلغت الساحل الغربي ركبت سكة الحديد الفرنسويَّة ولكن اتفق ركوبي في مركبة فيها رجل فرنسوي مصاب بالحمَّى الصفراء فاضطررت ان اقيم في الكورنتينا . ولم يكن معي ادوية تستحق الذكر في كل سفري ولا آلة لترشيح المياه . ولا اهتممت بلذع البعوض ولا بالوسائل الطبيَّة وكانت النتيجة اني عدت الى اوربا وانا على تمام الصحة ولم البس في هذه الرحلة خوذة تقي من الشمس ولا ثيابًا تقي من المطر بل لبست ثيابي العادية التي البسها في مدينة لندن وقطعت هذه المسافة كلها وليس معي شيء من الاسلحة ولا سكين صغيرة الاَّ ان رجالي كانوا مسلحين بالبنادق الكثيرة الطلقات ولكن قلما كنت اعطيهم خرطوشًا ولم يكن معي رجل ابيض وقد قمت وحدي بكل نفقات هذه الرحلة

هذه خلاصة رحلتي والآن اشرحها لكم باكثر تفصيل واسهب في وصف غريبة او غريبتين من الغرائب الكثيرة التي لقيتها فيها

لم يكن اختراق بلاد الحبشة من الصعاب ولكنني خفت من حدوث ما لا يحمد في سكة الحديد من جبوتي الى دير دوى مسافة ١٩٠ كيلو مترًا لكثرة اهتزازها ولما بلغت دير دوى مضيت الى مدينة هرر وقابلت رأس مكُنّن وهو من اقدر رجال الحبشة · ولما عدت الى دير دوى نظمت قافلتي واتَّجهت نحو العاصمة وسرت في بلاد تكاد تكون قفرًا وزرت في طريقي كثيرًا من قبائل الدناكل وهم اقوام لا بأس بهم ولكنهم كثيرًا ما يقتلون الغرباء الذين يمرُّون في بلادهم و يمثّلون بهم وكانوا قد قتلوا رجلين من العرب ورجلاً من الاحباش قبلما اخترقت بلادهم بايام قليلة · وقد خاف منهم الجنود الاحباش الذين انوا معي لحمايتي. و بلغت اديس ابابا عاصمة الحبشة بعد سير اثني عشر يومًا ونزلت ضيفًا على السرجون هرنجتون سفيرنا لدى الامبراطور منلك وعلى الاوربيين القلال العدد الذين هناك. ولقيت من الامبراطور كل حفاوة واكرام · واديس ابابا اشبه بمعسكر كبير منها بمدينة وقصر منلك او قصورهُ فيها اشبه بمعمل كبير منها بقصور الملوك فان داخل اسوارها مضرب النقود والآلات البخارية والورش المختلفة ومنلك يقضي اكثر اوقاتهِ فيها لا على عرشهِ لانهُ يكره السياسة

والسرجون هرنجتون رجل مقتدر وبحنكتهِ وحسن تدبيرهِ بقي اسمنا مكرَّمًا في بلاد الحبشة ولولاهُ لخسرنا ما كان لنا من النفوذ وخرجنا من تلك البلاد صفر اليدين · اما الآن فلا خوف على نفوذنا هناك والفضل كل الفضل لهذا الرجل · وكل من يزور بلاد الحبشة يقول ان فيها رجلين يخشى بأسهما ويحمى جانبهما وهما الامبراطور منلك والسرجون هرنجتون · والامبراطور يعتمد على رأي السرجون ويقدر مشورتهُ قدرها وعندي ان كثيرًا من الاصلاح الذين تمَّ في بلاد الحبشة كان بمشورتهِ

وكلمة الامبراطور نافذة في رعيتهِ وهم يعبدونهُ عبادة كأَنهُ اله ويشاركهم في ذلك غير الاحباش من القبائل الخاضعة لهم وكلمتهُ شريعة لهم وامرهُ مطاع فيهم ورجالهُ يتغلبون على اعدائهم بما لهم من الهيبة في النفوس لا بمهارتهم الحربيَّة فاذا توفي منلك لم يسهل على مَن يخلفهُ ان يقبض على زمام البلاد لاسيما وان عيون الدول الاوربيَّة طامحة اليها من كل الجهات

ومنلك من اعدل الملوك واكرمهم واشدهم رزانة · ولو كان اصغر سنًّا وساح في اوربا لعاد منها بامور كثيرة تأول الى اصلاح بلادهِ · وكل ما تحتاج اليهِ بلاد الحبشة حكومة منظمة وشرائع ثابتة

ولم اجد كبير صعوبة في المسير من تلك البلاد الى نهر السُّبت ولقيت في طريقي قبائل الفالا في غربي بلاد الحبشة وهم يكرهون الاحباش مع انهم خاضعون لهم واذا مات منلك فلا يبعد ان يخلعوا طاعة الاحباش ويستظلوا بالعلم البريطاني . وهم اهل نظر يحرثون الارض ويربون المواشي ولهم المام بالتجارة ويدينون بالاسلام

والجانب الغربي اخصب بلاد الحبشة وهو معتدل الهواء لارتفاعهِ ويسهل اصلاح زراعتهِ وفيهِ البن البري وهو من افخر انواع البن والصمغ الهندي ومعادن كثيرة ويجمع التبر من مسيل نهر بارو

ويلي الارض المرتفعة ارض منخفضة من املاك الحبشة يديرها اناس من حكومة السودان وهناك يسكن اليمبو وهم جيل من الناس طوال القامة جدًّا كأُنهم الجبابرة

واول نقطة فيها مأْمور مصري جمبلا وهي خبيثة الهواء لا تبقي على انسان ولا حيوان رأَيت فيها بعض تجار اليونان وكلهم في حالة يرثى لها من فعل الحمَّى الملارية بهم ورأَيت على قبر الجنرال غاتكر قطعتين من الخشب في شكل صليب وكثيرًا من الشوك منعًا للضباع من نبش الجثة واكلها

ولقيت قبائل النوير جنوبي نهر السُّبَت وهم اقوام غريبو الاطوار لا يأْتمنون احدًا ولا يأْتمنهم احد عندهم كثير من المواشي لكنهم لا يبيعون منها ولا يقايضون وثيرانهم ليست اقل شراسة منهم فكانت تهجم على دواب قافلتي حيثما رأَتها ورجالهم يطلون ابدانهم بطلاءٍ ابيض واما نساؤُهم فيحافظن على لونهنَّ الاسود ولا يلبسن الاَّ ابسط الملابس الطبيعيَّة . وكلهم ممتازون بطول ارجلهم ويطلون شعورهم بطلاء لزج ويجمعونها معًا في شكل مستدق وهذا الطلاءُ يصبغ الشعر بلون احمر . ويدلُّ طول سوقهم على انهم مخلوقون ليعيشوا في بلاد كثيرة المستنقعات كأَنهم طيور الماء وكثيرًا ما ترى الواحد منهم واقفًا على رجل واحدة كأَنهُ مالك الحزين

وقد اضطررت ان اعبر نهر السبت مرارًا كثيرة وهو عميق سريع الجري فكنت اجد مشقة كبيرة في عبره برجالي وبغالي وكانت البغال تسبح سباحة ونحن نطلق البنادق حولها خوفًا من التماسيح وكابدنا مشقات كثيرة الى ان بلغنا التوفيقيَّة على النيل وهي اقفر بقاع الارض(١) وهناك حامية من الجنود السودانية

ولما دنونا من النيل دخلنا بلاد الشلوك وقد كانوا اكثر عددًا واقوى صولة منهم الآن

---

(١) [المقتطف] وصلنا اول تلغراف منهُ من التوفيقية

ولكن حملات الدراويش والمصريين والنخاسين بددت شملهم وكادت تقرضهم ويظهر من انتشار لغتهم انهُ كان لهم صولة واسعة فاني رأيت الناس يتكلمونها او يفهمونها في عالية الحبشة وبلغني ان الامر كذلك في الجنوب حتى فكتوريا نينزا . وهم فريقان احدهما يعترف بالقرابة بينهُ وبين النوير ولا سيما بين الدنكا . واكثر الشلوك الآن على ضفة النيل الشمالية بين بحيرة نو ومصب السُّبت وبلادهم سهل فسيح تكثر فيهِ الاعشاب الكبيرة وتخترقهُ الخيران الكثيرة والمنخفضات التي يغمرها الماء زمن فيضان النيل وليس فيها الاَّ قليل من شجر الدوم والهجلج والدلب ويفسد هواؤُها في فصل المطر

وقلما يتزوج الرجل من الشلوك بغير امرأة واحدة لغلاء مهر النساء فان مهر الزوجة لا يكون اقل من ثلاثة ثيران او اربعة او اربعين رأساً من الغنم او المعزى عدا الهدايا التي يهديها الخطيب الى اهل الفتاة قبل الاتفاق على مبلغ المهر وتعد الثيران او الغنم والمعزى التي يتفق عليها بقطع من القش توضع على الارض وقت الخطبة فاذا تم الاتفاق بين الخطيب واهل الفتاة على المهر اخبروها بذلك حتى اذا قبلت اهدى اليها الخطيب سواراً من النحاس او العاج فتلبسهُ بذراعها . وقد يتزوج احدهم بفتاة ويعد اهلها بالمهر ثم يعجز عن الوفاء بوعدهِ فتؤْخذ زوجتهُ منهُ . وبعض الشلوك ينزعون الثنيتين والرباعيتين من الفلك الاسفل كما تفعل بعض القبائل في قلب افريقية

والبلاد حول بحر الغزال من اقبح البلدان وقد اتفق اني مررت فيها من مشرع الرق الى واو في اشد شهور السنة حرًّا وجفافاً قبل فصل المطر وكثيراً ما كنت اعجز عن استقاء الماء الكافي لما معي من الدواب من الآبار التي هناك

والدنكا اقارب الشلوك جاء اسمهم على ما اظن من دنجو الذي يقال في تقاليد الشلوك انهُ كان اخاً لجوا كنجو وهما اول من ظهر من قومهما في تلك البلاد فاختصم الاخوان وعبر دنجو النيل وسكن على ضفتهِ اليمنى ومنهُ جاءت قبائل الدنكا

ولما قطعت بلاد بحر الغزال ووصلت الى ديم زبير سرت في الحراج الاستوائية متجهاً الى الجنوب ومررت على كثير من القبائل في اطراف بحر الغزال . اما قبائل النيام نيام فليس هذا اسمهم بل هو لقب ضعةٍ يلقبهم بهِ غيرهم واما هم فيسمون انفسهم اسنده من سنده اي تحت . وقد رأيت بعضهم وهم مشوهو الخلقة بطونهم كبيرة ورؤُوسهم مستطيلة بلهٌ خبثاء لا يؤْمن شرهم لكنني وجدت في لغاتهم اموراً تدل على انهم منحطون من اصل مرتقٍ وهذه الامور قد تكون عرضية ولكن سواءٌ كانت عرضية او غير عرضية فهي مما لم ارَ لهُ مثيلاً

في الايطالية والفرنسوية والالمانية والاسبانية والبرتغالية والانكليزية فاذا اراد الواحد منهم ان يضيف اليهِ شيئًا غير حي خارجًا عنهُ استعمل ضمير المتكلم المضاف اليهِ كما تقول بيتي ورمحي ولكن اذا اراد ان يضيف اليهِ شيئًا متعلقًا بهِ مثل ابيهِ ويدهِ لم يقل كما تقول نحن ابي ويدي بل اضافهُ الى ضمير مثل الضمير المرفوع عندنا كأنهُ يقول اب انا يد انا للدلالة على ان المضاف من اهلهِ او من نفسهِ . وبعض الاسماء عندهم مستعار من الحوادث الطبيعيَّة او من عالم النبات فمعنى اسم اللحية عندهم مطر الذقن ومعنى اسم الراحة ورقة الذراع ومعنى اسم الظفر قشر الاصبع واسم القدم ورقة الساق ويسمون النجوم بما معناهُ اعداء الشمس . وللواحد والاثنين والثلاثة الى الخمسة اسماءٌ مفردة واما الستة فاسمها واحد من اليد الاخرى والسبعة اثنان من اليد الاخرى والثمانية ثلاثة من اليد الاخرى والاحد عشر واحد من القدم والستة عشر واحد من القدم الاخرى والحادي والعشرون رجُل واصبع والحادي والاربعون رجلان واصبع والحادي والستون ثلاثة رجال واصبع وهلمَّ جرًّا

وكان غرضي الوصول الى مملكة زميو وهي اكبر الممالك في اواسط افريقية فقطعت الحراج لهذه الغاية وتركني حينئذٍ كل الرجال الذين كانوا معي ماعدا واحدًا من اهالي الصومال فسقنا القافلة وحدنا وكان فصل المطر فمات اكثر الدواب التي معي وكان الحر شديدًا يزهق النفوس والارض مستنقعًا متصلاً والاشجار تلطم الاحمال على ظهور الدواب فتحلها او توقعها ونضطر الى ربطها مرارًا في اليوم والامطار تنصبُّ علينا كافواه القرب والاشواك والادغال تنشب في اقدامنا واُصبنا كلانا بالحمَّى ومضى علينا شهر ونحن على هذه الصورة نقاسي اشد المشاق الى ان بلغنا نهر مبومو وكان في قافلتي ثلاثون دابة بين بغال وحمير فلم يبقَ منها سوى اربعة حمير فاسترحت هناك يومين استرجعت فيها قوتي وعدت الى مواصلة المسير

وعلى نهر مبومو ونهر اوبنغي قبائل كثيرة اكثرها من اكلة لحوم الناس والنهران يفصلان بلاد الكنغو الحرَّة عن الكنغو الفرنسويَّة وما رأيتهُ من بلاد الكنغو الحرَّة يدل على حسن الادارة فيها واهاليها على تمام الرضى وقد اصلحت طرق البلاد وزراعتها وما يشاع على ضد ذلك غير منطبق على الحقيقة . والموظفون الايطاليون في حكومة الكنغو باذلون اقصى جهدهم في اسعاد السكان والسكان يحبونهم ويكرمونهم

وقد قطعت مرارًا الطريق الذي مرَّ بهِ الكولونل مرشان ورأيت الخريطة التي رسمها منطبقة غاية الانطباق على البلاد وهي في غاية الضبط والاحكام

وقمت من اوبنغي باربعين حمَّالاً وسرت نحو بحيرة شاد وكان الفصل لا يزال ممطرًا واضطررنا ان نقطع انهرًا كبيرة ونمر على كثير من القبائل الغريبة الاطوار وفي جملتهم قبيلة المنجيا وقبيلة السنجا ونساؤُهما يثقبن شفاههنَّ السفلى ويدخلن في الثقب عودًا او عظمًا او قطعة مستطيلة من البلور او يعلقن في الشفة العليا حلقةً كبيرة جدًّا حتى تطول الشفة بها وتتدلى وقد يعلقن حلقة بكل شفة من الشفتين

وزرت بلاد الالمان في الكيمرون ولقيت حسن الضيافة من الموظفين الالمانيين ووجدت انهم يحسنون الاعتناء بالسكان وان البلاد آخذة في الارتقاء بعنايتهم

وقد قيل ان ماء بحيرة شاد آخذ في النبوض ومن المحتمل انها تجف تمامًا لكثرة التبخُّر منها ولان الانهر التي تصب فيها تحمل اليها كثيرًا من الطمي فيرسب فيها ويختلط بالنباتات التي تنبت وتيبس فيها فيعلو قاعها رويدًا رويدًا . ولا شبهة ان هذه البحيرة كانت في العصور الغابرة اوسع مما هي عليهِ الآن . وقد حفر الملازم فريدنبرج بئرًا على بعد من البحيرة فوجد ترابها طبقات مترادفة من الرمال والمواد النباتية البالية وهي تدل على ان البحيرة كانت تغمر المكان الذي حفرت فيهِ البئر وتبين كيف ترسب المواد النباتية والرمال بعضها فوق بعض

وسرت في نهر النيجر بقارب من الحديد فقضيت ٢٨ يومًا حتى وصلت الى تنبكتو ولم يسر القارب في مسيل النيجر نفسهِ بل في الارض التي طغي عليها ماؤُهُ . ولا تسل عمَّا لقينا من المشاق في طريقنا من القصب والحلفا ولا ما بُلينا بهِ من البعوض . وكثيرًا ما كنا نجد الجنادل في طريقنا والماء يجري بينها سريعًا مزبدًا فنضطر ان نعود ادراجنا . واتفق مرةً ان وصلنا الى شلال من هذه الشلالات فخرج الرجال من القارب وربطوهُ بالحبال من الجانبين لكي يمنعوهُ من الانقلاب وبقيت انا وحدي فيهِ والدفة في يدي وكانت امتعتنا فيهِ لكن المياه رفعتهُ وقذفت بهِ فوقع الرجال الممسكون بالحبال في الماء وكاد بعضهم يغرق ودفع القارب الى اسفل وامتلأ ماء لكنني نجوت من الغرق وانقذنا القارب والامتعة

اما مدينة تنبُكتو فمبنيَّة على جانبي كثيبين من الرمال ممتدين شرقًا وغربًا فيها خمسة الآف من السكان المقيمين واربعة الآف من التجار الذين يترددون عليها اكثرهم من طرابلس الغرب ومراكش وغدنون وتدوف وطوات واهاليها يتكلمون بكثير من اللغات الافريقية

واسهب الخطيب في وصف معادن البلاد ونباتاتها ومدح الموظفين الفرنسويين على ما لقيهُ من كرمهم وقال ان العلماء منهم باذلون جهدهم في درس طبائع البلاد ومصادر ثروتها والاساليب التي تستثمر بها والضباط الذين يقودون جنود السنغال ماهرون في كل شيء فتراهم

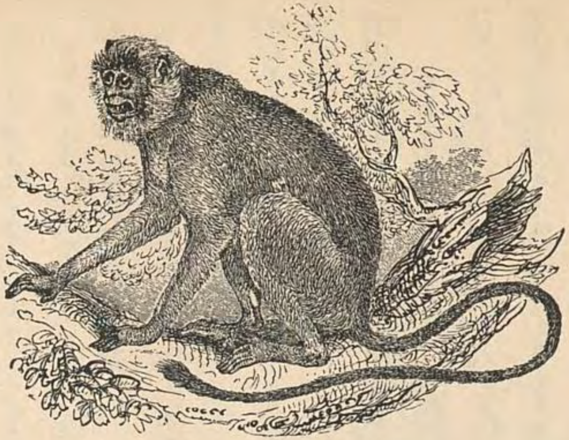

النسناس

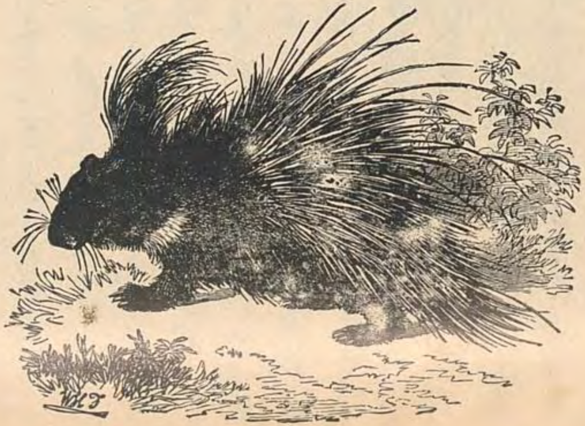

الدلدل

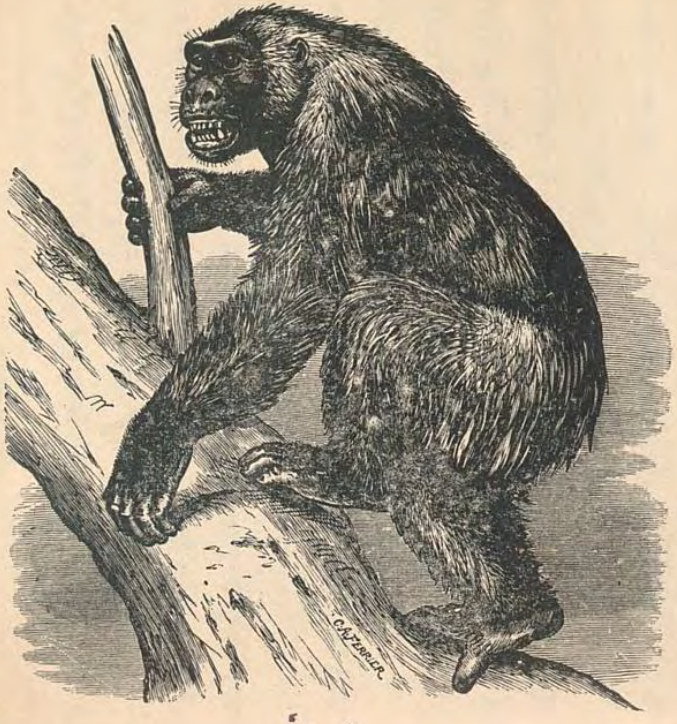

الغورلاّ

يمسحون البلاد ويبنون البيوت ويحفرون الترع ويعلمون الاهالي كل ما يحتاجون اليهِ لمعيشتهم ورجال الادارة منهم من اكثر الرجال حنكة وامهرهم في اساليب السياسة. وختم بالشكر للورد كروم والسردار ولوكيلي فرنسا وبلجكا السياسيين في مصر وللكبتن اون لانهم كلهم ساعدوهُ بما سهَّل عليهِ اختراق افريقية

معجم الحيوان

[لا يخفى على مَن اشتغل بالترجمة من اللغات الاوربيَّة او بالتأليف على منهاج الاوربيين ان من انواع الحيوان والنبات ما اسماؤُهُ معروفة مشهورة كالغراب والفرس والتين والزيتون فلا تخفى على احد ولا تخفى دلالة الاسم على المسمَّى. ومنها ما اسماؤُهُ غير معروفة او غير مشهورة او اخطأ المترجمون في ترجمتها وشاع الخطأُ دون الصواب وهذه كلها يستصعب المترجم تحقيقها من مظانها كلما وصل اليها وليس في العربية حتى الآن قاموس عربي افرنجي عُني مؤَلفهُ بترجمة كل اسماء الحيوانات والنباتات التي لها اسماء في العربيَّة او بين الناطقين بها ناهيك عن ان تعريف اسماء الحيوانات والنباتات في كتب اللغة العربية قلما يدل عليها

وقد عني صديقنا الدكتور امين معلوف منذ مدة بالبحث عن اسماء الحيوانات ووضع لها معجماً ذكر فيهِ الاسم العربي والاسم الفرنسوي والاسم الانكليزي والاسم العلمي ووصف كل حيوان وصفاً اوجز فيهِ او اسهب حسب مقتضى الحال فرأينا ان ننشر هذا المعجم تباعاً في المقتطف لعرضهِ على الباحثين في هذا الموضوع وعسى ان يتحفنا المؤَلف بمعجم آخر للنبات لانهُ بحث في هذين الموضوعين بحثاً دقيقاً يعود عليهِ بالشكر. المقتطف]

ذوات الايدي الاربع QUADRUMANA

❖ **البَعَام** ❖ Anthropopithecus troglodytes. E. Chimpanzee. F. Chimpanzé

نوعٌ من القرود الشبيهة بالانسان واقربها اليهِ في تركيب الجسم. طول البالغ منهُ نحو متر ونصف ويداهُ تصلان الى ركبتيهِ فقط ولا ذنب لهُ. وطنهُ الحراج الكثيفة في اواسط افريقية

اما لفظة البَعَام هذه فقد سمعتها مرارًا من عرب السودان وهو الاسم الذي يعرف بهِ

هذا الحيوان عندهم وقد ذكر هذه اللفظة الدكتور شوينفورث (١) ونعوم بك شقير (٢) والبكباشي امري (٣)

﴿ الغُوْرِلاَّ (افريقية) ﴾ Gorilla. E. Gorilla. F. Gorille. جنسٌ من القرود الشبيهة بالانسان وهو اكبر من البَعَام واقوى منهُ واشرس

﴿ الإنسان الوَحْشِي (٤) (تعريب أُرانغ اوتانغ بلغة ملقَّة) ﴾ Simia Satyrus. E.&.F. Orang-Outang من القرود الشبيهة بالانسان ولكنهُ اقل شبهاً بهِ من البعام والغورلاَّ وهو اقصر منهما ويداهُ طويلتان جدًّا ومسكنهُ الاشجار في غياض بورنيو وسومطرة

وقد ورد ذكر هذا الحيوان كثيرًا في كتابات العرب ولكنهم لم يضعوا لهُ اسمًا على ما اعلم . فقد جاءَ في كتاب عجائب الهند لبُزْرُك بن شهريار (٥) “ قال حدثني محمد بن باشاد قال رأيت بسريرة (سَرَبُزَة) (٦) عند امرأَة بها دابة على صورة بني آدم الَّا ان وجههُ اسود مثل وجه الزنج ورجليهِ ويديهِ طوال ازيد مما عليهِ الآدمي ولهُ ذنب طويل وعليهِ شعر مثل شعر القرد .... فقلت لها ما هذا فقالت “ من اهل الغياض والاشجار ” . وكان يصيح صياحًا ضعيفًا لا يفهم ما هو . وهو قريب من القرد الَّا ان وجههُ وجه بني آدم وخلقتهُ مثل بني آدم ” . وارجح ان هذا الحيوان هو الانسان الوحشي بعينهِ ولو وصفهُ بطول الذنب فقولها لهُ “ من اهل الغياض والاشجار ” هو ترجمة ارانغ اوتانغ بلغة تلك البلاد . وجاءَ في اثار البلاد للقزويني وعجائب المخلوقات لهُ ايضًا شيءٌ مثل هذا عند ذكرهِ جزيرة زابج (٧) وعليهِ ارى ان احسن تسمية لهذا الحيوان هو ما وضعهُ المرحوم احمد فارس

﴿ الجِبُون (معرَّبة) ﴾ Hylobates E.&.F. Gibbon. جنس (٨) من القرود

---

(١) The Heart of Africa, by Dr. Schweinfurth. (٢) تاريخ السودان لنعوم بك شقير وقد جاءَ فيهِ سهوًا ان البعام هو الاران اوتان وهذا لا وجود لهُ في افريقية (٣) دليل الحيران الى لغة عرب السودان للبكباشي امري (٤) طبائع الحيوان للمرحوم احمد فارس طبع في مالطة سنة ١٨٤١

(٥) هذا الكتاب نشرهُ في اوربا المسيو فان درليث وعلق عليهِ شرحًا مستوفيًا يدلُّ على مكانة ناشرهِ من العلم والتدقيق ثم انهُ بعد صدور مقالة المطبوعات المصرية في مجلة المشرق ظهر هذا الكتاب مطبوعًا في مصر وحبذا لوان طابعهُ اشار الي فان درليث . واظنهُ لم يطلع على مقالة مجلة المشرق (٦) فرضة ونهر في سومطرة اسمها الآن بالمبانغ

(٧) المرجح انها جاوى او بورنيو (٨) قد اتبعت اصطلاح المحدثين في ترجمة Genus جنس و Species نوع و Variety صنف و Family عائلة و Order فصيلة وهلمَّ جرًّا

الشبيهة بالانسان وهو طويل اليدين جدًّا ويوجد منهُ انواعٌ كثيرة اكثرها في جزائر المحيط الهندي

❖ القِرْد · الرُبَّاح ❖ والانثى ❖ إِقَّة ❖ Papio. E. Baboon F. Babouin.

القرد حيوانٌ من ذوات الايدي الاربع وهو قصير الذنب متصلّب الأَليتين قبيح المنظر رأسهُ شبيهٌ برأس الكلب ويوجد منهُ انواعٌ كثيرة منها نوعٌ واحدٌ في اليمن والباقي في افريقية · والقرود هي الحيوانات التي نراها مع القرّادين ويسميها اهل الشام السعادين ومن اسماء القرد الشائعة عند العامة الميمون وهو اسم القرد بالتركية ومن الغريب ان علماء الحيوان يطلقون لفظة الميمون ايضًا على نوعٍ من القرود قائم بنفسهِ ويسمى عندهم C. Maimon وهذه اللفظة ليست مشتقة من العربية او التركية بل من لفظة يونانية معناها السعلاة

والقرد كما وصفهُ العرب هو الحيوان الذي يعرفهُ اهل مصر والسودان وبلاد العرب بهذا الاسم في وقتنا الحاضر وهو ما يسميهِ الافرنج بابون ولذلك لا ارى موجبًا لاستعمال لفظة سعدان او ميمون او بابون كما تجد ذلك في بعض المؤلفات الحديثة ولا بأْس بتسمية الحيوان الذي يسميهِ الانكليز Mandrill بالميمون فهو احد انواع القرود ويعرف عند الافرنج بالميمون ايضًا · اما البعام وما يليهِ من القرود فالاصلح تسميتها "بالقرود الشبيهة بالانسان" كما يفعل الافرنج · اما الرُبَّاح فهو ذكر القرود في كتب اللغة وحسب رواية المسعودي(١) هو القرد بلغة اهل اليمن ويُظن ان هذه اللفظة من اصلٍ ساميّ بمعنى رب او سيد(٢) لانهم كانوا يعظمون القرد في اليمن كما كان يفعل قدماءُ المصريين

❖ النِسناس والنَسناس ❖ E. Monkey واحد النسانيس وهي طائفة من ذوات الايدي الاربع تحتها اجناس وانواع كثيرة ويختلف النسناس عن القرد بطول ذنبهِ وعدم تصلّب اليتيهِ وهو الطف منهُ منظرًا واقل شراسةً

والنسناس في كتب العرب جنس من الخلق يثب على رجل واحدة لكل واحد منهم يدٌ ورجل من شقٍّ واحد او خلق على صورة الناس وخلاف ذلك من الاقوال الخرافية · وقد ذكر المسعودي في مروج الذهب انهُ أُتي بنسناس من اليمن الى الخليفة المتوكّل. واما في وقتنا الحاضر فاهل مصر واليمن والسودان يطلقون هذه اللفظة على ما يسميهِ الانكليز

---

(١) مروج الذهب للمسعودي

(٢) Symbolae Physicæ seu Descriptiones Mammalium &c. Ehrenberg & Hemprich.

Monkey وقد استعملها كثيرون من المؤلفين بهذا المعنى ولا ارى مانعاً لذلك فكثير من اسماء الحيوانات المعروفة عند الافرنج مأخوذ عن خرافات اليونان وعندي ان العرب قديماً استعملوا هذه اللفظة لهذا الحيوان بعينهِ ثم بالغ كتابهم في وصفهِ شأنهم في كل شيء. ومبالغتهم في الوصف امرٌ مشهور ولدينا امثلة كثيرة عن حيوانات بالغوا في وصفها حتى يتوهم القارئ انها خرافية كالأصلة مثلاً فالقارئ يرتاب في صحة وجود هذا الحيوان حسب وصفهم لهُ والاصلة تعرف بهذا الاسم في السودان في وقتنا الحاضر وهي من الثعابين الكبيرة وسيأتي ذكرها

❖ اليَمُوْر (لاتينيَّة بمعنى شَبَح) ❖ E. Lemur F. Lémur جنس من ذوات الايدي الاربع وهو دقيق الخطم كبير الاذنين وذنبهُ طويل وكثيف الشعر ورأسهُ شبيه برأس الثعلب ويوجد منهُ اجناس وانواع كثيرة اكثرها جميلة المنظر

ذوات الايدي المجنحة CHEIROPTERA

❖ الخُفَّاش (من الخَفَش اي ضعف البصر) . الوَطْوَاط . السَّحَا (لعلها من سَحِيبح بالمصرية القديمة⁽¹⁾) ❖ E. Bat. F. Chauve-Souris. الخفافيش طائفة من الحيوانات اللَّبونة ⁽٢⁾ وهي مجنَّحة الايدي وتطير ويوجد منها اجناسٌ وانواعٌ كثيرة

❖ المصَّاصَة⁽٣⁾ ❖ F.&.F. Vampire. من الحيوانات اللبونة الطائرة التي تشبه الخفافيش وهي اكبر منها . تهاجم الانسان وغيرهُ من الحيوان وهو نائم وتمصّ دمهُ الى ان يموت . وتوجد المصَّاصة في اميركا الجنوبية

اكلة الحشرات INSECTIVORA

❖ التَلْبَا (معرَّب اللفظة اللاتينية) الخُلد الاوروبي ❖ Talpa. E. Mole. F. Taupe نوع من اكلة الحشرات التي تعيش تحت الارض وهو مفيد للزراعة لانهُ يأكل الحشرات بخلاف الخلد المعروف في الشام ومصر فانهُ من القضَّام واكلة البقول وهو مؤذٍ للزراعة كثيراً

---

(١) بغية الطالبين في علوم وعوائد قدماء المصريين لاحمد بك كمال (٢) هذه اللفظة وضعها المرحوم الدكتور زلزل تعريباً للفظة Mammalia (٣) هذا الحيوان لا اسم لهُ بالعربية وهذه اللفظة وردت في معجم بادجر واظنها من اوضاعهِ وهي في غاية الموافقة

والحيوان المسمى Mole بالانكليزية لا اسم لهُ بالعربية ولا وجود لهُ في مصر والشام فالمسمى خلدًا بالعربية يسميهِ الانكليز Mole-rat وسيأتي ذكرهُ . وهذا الخطأ في الترجمة قد ينتج عنهُ ضرر كبير فقد رأيت احدى المجلات العربية تشير بتربية الخلد لاهلاك الحشرات . ولكن الخلد لا يأكل الحشرات مطلقًا بل جذور النباتات وهو موءذٍ للزراعة كثيرًا ولا ريب في ان تلك المجلة نقلت ذلك عن احدى اللغات الاوربية فظنت ان Mole او Taupe هو الخلد بالعربية فاذا كان لا بد من ترجمة Mole بالخلد وجب تسميتهُ بالخلد الاوربي تمييزًا لهُ عن الخلد المعروف عندنا

◆ القُنفُذ . الأَنقد . الحسيكة . اللُّتُنَّة ◆ Erinaceus. E. Hedgehog. F. Hérisson.

جنس من الحيوان من اكلة الحشرات وهو اكبر من الفار قليلاً وجسمهُ مغطًّى بشوكٍ قصير وتسميهِ العامة في الشام بكبَّابة الشوك . اما في مصر وبلاد العرب فيعرف بالقنفذ

وقد ظن كثيرون ان القنفذ هو الدُلدل او النيص Porcupine لان القنفذ من اسماء الدلدل في بعض انحاء الشام والحقيقة ان القنفذ هو هذا الحيوان القصير الشوك المسمى Hedgehog والدلدل هو المسمى Porcupine وهذا من فصيلة غير فصيلة القنفذ وسيأتي ذكرها . فعرب البادية (١) واهل مصر يسمون هذا الحيوان قنفذًا كما ذكرت وقد جاء في كلام العرب ما يؤيد ذلك . قال الدميري " القنفذ صنفان قنفذ يكون بارض مصر قدر الفار ودلدل يكون بارض الشام والعراق في قدر الكلب القَلَطي " وقال عند ذكر الدلدل " الدُلدُل عظيم القنافذ وانما شبهتهُ بالقنفذ لانهُ اكثر ما يظهر بالليل ولانهُ يخفي رأسهِ في جسدهِ ما استطاع " وقال الجاحظ " وفرق بين القنفذ والدلدل كفرق ما بين الفار والجرذان والبقر والجواميس والبخاتي والعراب والضأن والمعز والذر والنمل " . وقد ذكر الجاحظ وكثيرون غيرهُ ان القنفذ يأكل الحيات وهذا لا يصدق على الدلدل لانهُ من القضام واكلة البقول الَّا ان بعض علماء العربيَّة حسبوا القنفذ والدلدل نوعًا واحدًا وقالوا ان الدلدل هو القنفذ او العظيم من القنافذ . اما لفظة ابي شوك فيطلقها عرب البادية على القنفذ وعرب السودان على الدلدل

تنبيه ان حرف E المتقدم على الاسماء الافرنجية يدل على الانكليزية والحرف F على الفرنسوية

---

(١) Arabia Deserta, by C.M. Doughty, I. p. 326

السوريون في زمن الفتح

قلنا في المقالة التي صدَّرنا بها الجزء الماضي ان الممالك العثمانية كانت قبل عهد العرب اكثر سكانًا واوفر عمرانًا مما هي عليهِ الآن حتى لا يكاد يصدَّق ان سكانها الحاليين هم نسل الذين بنوا هياكل بابل واشور ولقصر وكرنك وبعلبك وتدمر

ولا يختلف اثنان في ان عمران البلاد كان بالغًا اقصاهُ في زمن الاشوريين والمصريين والفينيقيين واليونان والرومان الى القرن الاول والثاني من التاريخ المسيحي ولكن من يقرأ فتوح الشام للواقدي ونحوهُ من الكتب العربيَّة يتوهم ان سورية كانت خالية من رجال العلم والفضل في زمن الفتح وقُبيلهُ وبُعيدهُ لانهُ لا يرى لهم فيها ذكرًا ولا اثرًا كأَنَّ عمرانها كان قد زال وعفيت آثارهُ منذ قرون كثيرة لكن المحققين اثبتوا ما ينافي ذلك فانهُ كان للسوريين في ذلك العصر شأن كبير في العلوم والفنون والصناعة والتجارة فقد نشأَ منهم كثيرون من الاعلام مثل بروكوبيوس المؤَرخ بل اشهر مؤَرخي مملكة الروم (البزنطية) وهو سوري ولد بقيصريَّة من اعمال فلسطين في اواخر القرن الخامس للميلاد ودرس الشريعة وسار مع بليساريوس قائد جنود الروم من قبل الامبراطور يوستنيانوس لمحاربة الفرس سنة ٥٢٦ للميلاد ولمحاربة الوندال في افريقية سنة ٥٣٣ ولمحاربة القوط الشرقيين في ايطاليا سنة ٥٣٦ . وعاد الى القسطنطينيَّة فاكرمهُ الامبراطور يوستنيانوس وجعلهُ محافظًا على المدينة سنة ٥٦٢ . والَّف تاريخًا كبيرًا في ثمانية مجلدات اثنين منها لحروب الفرس من سنة ٤٠٨ الى سنة ٥٥٠ واثنين لحروب الوندال من سنة ٥٣٢ الى سنة ٥٤٦ واربعة لحروب القوط وهي تمتد الى سنة ٥٥٢ والَّف ايضًا ستة كتب عن المباني التي انشأَها يوستنيانوس او رممها . وعن سيَر الناس المتصلين ببلاطهِ . واشهر كتبهِ تاريخهُ عن الحروب لانهُ اثبت فيهِ ما رآهُ مرأَى العين او ما بحث عنهُ وتحققهُ بنفسهِ

ومنهم اڤاغريوس المؤَرخ وهو من اهالي سورية وكان من كبار المحامين وقد تقلب في كثير من مناصب الدولة الرومانية ولهُ تاريخ موثوق بهِ للمدة التي بين سنة ٤٣١ و ٥٩٤

ومنهم يوحنا النحوي وسرجيوس الحمصي العالم بطبائع الحيوان . وسرجيوس الرامي الطبيب شارح فلسفة فيثاغورس وافلاطون . وساويروس الانطاكي

ووصل السوريون الى بلاد الهند واقاموا في سواحلها ووصلوا الى جبال حملايا وفي

اشعار الهنود اشارات الى التعاليم التي تعلموها من السوريين في ذلك الحين ووصلوا الى بلاد الصين في عهد الامبراطور تاي تسنغ بين سنة ٦٢٧ و ٦٤٩ وقد وُجد في بلاد الصين لوح عليهِ كتابة صينيَّة و كتابة سريانية وتاريخ الكتابتين يوافق سنة ٧٨١ المسيحية و يظهر منها ان امبراطور الصين امر حينئذٍ بترجمة الانجيل الى اللغة الصينيَّة ونشرهِ في بلاد الصين وامر ايضاً بان تبنى كنيسة للمسيحيين وان السفارة التي ارسلها ملك الروم الى بلاد الصين سنة ٦٤٢ كانت من السوريين النسطوريين . وحروف الهجاء المغولية مشتقة من الكتابة السريانية

هذا من حيث تأثير السوريين في البلدان الشرقية قُبيل الفتح وبعيدهُ اما تأثيرهم في البلدان الغربية فيكفي للدلالة عليهِ ما قالهُ القديس ايرونيموس وهو "ان حب الكسب حمل السوريين على ارتياد العالم كلهِ وغرامهم بالتجارة جعلهم يطلبون الغنى تحت شفار السيوف ويغلبون الفقر باقتحام المخاطر في الوقت الذي تغلَّب البرابرة فيهِ على المسكونة". وقد كانت صور عاصمة الفينيقيين ملكة التجارة قبل المسيح باحد عشر قرناً وصارت في القرن الخامس والسادس بعد المسيح محور تجارة الحرير . وكان التجار يفدون على ايطاليا من صور وبيروت . وتدل الكتابات القديمة التي وجدت في آثار اوربا ان السوريين كانوا في اكثر مدن اوربا التجارية في ناربون و بوردو وليون وجينه و بسانسون واورلين وتور وباريس وستراسبرج وترف ورنزابرن وباڤاريا وفي سوث شيلدس من انكلترا . ولم يكتفوا بالتجارة بل اشتغلوا بزراعة الجنائن ونقلوا الى اوربا كثيراً من الاثمار والبقول وعلموا اهليها كيفيَّة زرعها واتجروا فيها بالمنسوجات الحريريَّة وادخلوا الى اوربا اسلوب النقش السوري وقد استخدمهم شارلمان لتنقيح ترجمة الاناجيل

وهم الذين بنوا المباني الكبيرة لملوك الحيرة وبني غسان وبني ساسان ايضاً كما يستدل من وجود اوراق العنب في نقوش تلك المباني وقد وجدت آثار عربيَّة قديمة من القرن السادس وعليها كتابات عربية وسريانية وهي تدلُّ على ان السوريين بنوها للعرب او كانوا مشتركين معهم فيها

لكن مجد الملك والاستقلال زال عنهم منذ خربت مملكتهم ولم يعد اليهم الّا في زمن العرب حين صارت دمشق كرسي الخلافة العربيَّة في عهد بني اميَّة ثم اعيد الملك اليها مراراً ولكنهُ كان كموج البحر وقت جزرهِ يتقدم قليلاً ثم يرتد اكثر مما تقدَّم . وعسى ان يكون زمان الجزر قد انقضى وحان زمان المد فتعود البلاد السوريَّة مع سائر البلاد العثمانية الى اوج مجدها الذي فارقها دهوراً طوالاً

الطيران والمراكب الطيارة

تأتينا الانباء البرقية هذه الايام عن طيران ريت وفرمن وزبلن بآلاتهما الطيَّارة. وترد الاخبار عن الجوائز السنية التي وُعد بها مَن يقطع المسافة الفلانية ببلونهِ او طيارتهِ. وقد عاد الناس الى احلامهم التي كانوا يحلمون بها في طفوليتهم وهي مجاراة الطيور والتخلُّص من مشقة السير برًّا وبحرًا. ولكن هل تتحقق تلك الاحلام اي هل يصير الطيران عملاً تجاريًا فتصنع مركبات طيارة يطير بها الناس عامتهم وخاصتهم من مصر الى الاسكندرية مثلاً بدلاً من السير بسكة الحديد فتغني آلة الطيران عن القطرات البخارية كما اغنت هذه عن الجمال والخيل والبغال ويصير نقل البضائع بين مصر والاسكندرية بالمركبات الطيارة اقل نفقة من نقلها بسكة الحديد. ونقلها من الاسكندرية الى مرسيليا اقل نفقة من نقلها بالسفن البخارية او تبقى المركبة الطيَّارة العوبة يلعب بها الناس يركبها اثنان او ثلاثة للنزهة او آلة حربيَّة يصعدون بها للاستطلاع كما يركبون الغواصات ويسيرون تحت الماء. هذه المسائل قد اجبنا عنها غير مرة وقلنا ان ركوب الهواء من باب تجاري ضرب من المحال ما لم تكتشف قوة تمنع ثقل المادة

وقد اطلعنا الآن على مقالة في هذا الموضوع للاستاذ سيمون نيوكم رئيس الجمعية الفلكيَّة باميركا نشرتها مجلة القرن التاسع عشر الانكليزية فرأينا ان نلخص منها ما يأتي قال

ان ما تمَّ حديثًا من استنباط طيارة طار بها الانسان اول مرةٍ ومن الاصلاح المستمر في البلون حتى صار يدار في الهواء كما يريد راكبهُ قد جعلا الاكثرين يظنون انهُ سيكون للطيران شأن كبير في التجارة. وظنون الناس في ما تفضي اليهِ المخترعات الجديدة مبنيَّة على ما علموهُ مما افضت اليهِ المخترعات القديمة فان ازدياد النجاح في الآلات الهوائية كازدياد النجاح في الآلات البخارية ولذلك يظن لاول وهلة ان الآلات الهوائية ستصل الى ما وصلت اليهِ الآلات البخارية او الآلات الكهربائيَّة. بل ان النجاح في ركوب الهواء ايسر تصوُّرًا من نجاح الآلات البخارية والآلات الكهربائية لاننا لم نكن نعلم ما ستفضي اليهِ واما الآلات الهوائية فالغرض الذي نرمي اليهِ معلوم محدود وهو ركوب الهواء والسير بالمركبات الهوائية بدل السير بالمركبات البخارية والسفن البخاريَّة. ولما وضعت الآلة البخاريَّة في اول مركب بخاري كانت في تراكيبها واوصافها ممَّا يستحيل ان تسير بهِ

السفن الكبيرة في عرض البحار ولم تبلغ ما بلغتهُ الآن الاَّ بعد ان تناولتها ايدي المخترعين والمستنبطين فغيروا وبدلوا وزادوا وانقصوا واصلحوا كثيرًا حتى بلغت ما بلغتهُ

وليست المسأَلة الآن مسأَلة امكان الطيران او امكان ركوب الهواء فانهُ قد ثبت من زمان منغلفيه انهُ يمكن عمل بلون يطير في الهواء ويحمل في مركبتهِ رجلاً او اكثر وثبت منذ عشرين سنة انهُ يمكن التحكم بالبلون حتى يذهب يمينًا او شمالاً حسبما يشاءُ راكبهُ. وثبت الآن انهُ يمكن ان تُصنَع طيارة كبيرة ذات سطحين مستويين تحمل الانسان وتطير بهِ. ولكن المسأَلة المهمة هي هل في الامكان السير في الهواء من باب تجاري اي هل يمكن ان نبدل مركبات سكة الحديد والسفن البخارية بمركبات طيارة كما ابدلنا مركبات الخيل والبغال بمركبات سكة الحديد وكما ابدلنا السفن الشراعية بسفن بخارية

ولا بدَّ قبل الايغال في هذا الموضوع من ذكر الفرق بين تقدُّم المعارف وتقدم المخترعات فالمعارف لاحد لها واوضح دليل على ذلك اكتشاف الراديوم فان هذا العنصر يُصدر من الحرارة ما لا ينطبق على قاعدة من القواعد العلميَّة الطبيعيَّة فاذا كشفت العلوم سبيلاً لابطال الثقل اي لملاشاة الجاذبيَّة فذلك السبيل يغير مسأَلة الطيران كل التغيير ويسهّل ما نراهُ الآن متعذّرًا وكذلك اذا امكن استخلاص الراديوم بالقناطير بدلاً من استخلاصهِ بالقمحات او اذا اكتُشف معدن او مزيج معدني اشد متانة من الفولاذ عشرة اضعاف فمسأَلة الطيران تتغيَّر عمَّا هي عليهِ الآن

ولكن رجال الاختراع غير ملتفتين الآن الى هذه الجهة اي انهم لا يحاولون اكتشاف طريقة لابطال الثقل ولا اكتشاف منجم للراديوم يستخلصُ منهُ بالقناطير ولا عمل مزيج معدني امتن من الفولاذ مرارًا كثيرة وقد تركوا ما هو محجوب في علم الغيب وهم يحاولون الآن استخدام الامور المعروفة للوصول الى ركوب الهواء من باب تجاري

ولركوب الهواء الآن طريقتان مختلفتان الاولى طريقة الآلات التي تطير في الهواء بواسطة حركتها كما يطير الطائر بتصفيق جناحيهِ. والآلة التي جاءَت وافية بالغرض حتى الآن هي ذات السطوح المستوية. وقد استعمل البعض آلة ذات اجنحة تطير بحركة اجنحتها ولكن ذات السطحين جاءَت اصلح منها حتى الآن وسواءٌ كان الفوز اخيرًا لهذه او لتلك فهي آلة تطير بحركة اجزائها لا غير لانها اثقل من الهواء جدًّا فلا تطير من نفسها

والثانية طريقة الآلات التي فيها غاز اخف من الهواء يملأُ بهِ كيس كروي او اسطواني فيبقى اخف من الهواء ويطير بخفتهِ وتضاف اليهِ آلة تديرهُ فيتجه بها هو وما يتصل بهِ ويسير

من مكان الى آخر. وقد اطلقنا على الاولى اسم الطيارة وهو مثل الاسم الذي استعملهُ الكاتب (flyer) وعلى الثانية اسم البلون وسماهُ الكاتب مركب الهواء (airship)

ومجال الطيارة محدود اكثر من مجال البلون لانهُ لا بدَّ لها من سطح متسع حتى يحملها الهواء ولا بدَّ من ان يتسع سطحها على نسبة ثقلها فاذا حمل المتر المربع ثقلاً معلوماً لزم لعشرة امثال ذلك الثقل عشرة امتار مربعة ولالف ثقل مثلهُ الف متر مربع ويجب ان تكون السطوح افقية . والطيَّارات التي صنعت حتى الآن تحمل رجلاً واحداً او اثنين فاذا اريد ان تحمل مئة رجل وجب ان يتسع سطحها مئة ضعف او خمسين ضعفاً . ويظهر باقل نظر ان ذلك ليس مما يمكن العمل بهِ لانهُ اذا اتسعت السطوح كذلك لم يعد في الامكان عمل عصي خفيفة تحملها وتكون متينة واذا كانت العصي متينة كافية لحملها وجب ان يزيد ثقلها فلا تعود الطيارة تحملها وتحمل الرجال الذين يركبونها

ثم انهُ اذا اختلَّ شيءٌ في آلة الطيارة فلا يمكن ايقافها في الهواء لاصلاحهِ لانها اذا وقفت عن الحركة وقعت كما يقع الطائر اذا كسر جناحهُ ولم يصنع الناس حتى الآن آلة لا يمكن ان يقع خلل فيها فاقل خلل يصيبها يعرّض كل راكبي الطيارة للقتل . ولو كانت السفن تعرَّض للغرق كلما وقع خلل في آلتها البخارية لما رأينا سفن البخار تقطع البحار

ولا بدَّ للطيارة من ان تطار قريبة من الارض لكي يبقى راكبها قادراً على رؤية سطح الارض وتحكيم وضع سطوحها بالنسبة اليهِ لان كل انحراف في وضع السطوح بسبب سرعة الطيارة او بطئها ومقاومة الهواء لها يعرّضها للوقوع كما تقع اذا كنتَ واقفاً في قطار سائر ووقف بغتةً

وهاتان العلتان لا تتناولان البلون لان طيرانهُ مناسب لجرم الغاز الذي فيهِ لا لسطحهِ فيمكن تكبيرهُ في الطول والعرض والعمق لا في الطول والعرض فقط كسطحي الطيارة ويمكن توقيفهُ في الهواء لاصلاح ما يعتري آلتهُ من الخلل . وقد يظن لاول وهلة انهُ اذا كبر جرم البلون كثيراً وجب ان تزاد القوَّة اللازمة لتسييرهِ على نسبة جرمهِ . وليس الامر كذلك لان القوة اللازمة لتسيير السفن الكبيرة لا تزيد على نسبة جرمها وثقلها بل على نسبة مربع طولها واما سعة السفينة لحمل البضائع فتزيد على نسبة مكعَّب طولها اذا كانت الابعاد متناسبة اي اذا وجدت سفينتان من شكل واحد تماماً وطول احداها مئة متر وطول الاخرى مئتا متر ولزم لتسيير السفينة الاولى الف حصان فيلزم لتسيير الثانية اربعة آلاف حصان ولكن اذا كانت الاولى تحمل الف طن فالثانية تحمل ثمانية آلاف طن لا اربعة آلاف طن .

وعلى هذا المبدإ تزيد قوة البلون بزيادة حجمهِ ويزيد الاقتصاد في القوة اللازمة لادارتهِ. فلا شيءَ من النواميس الطبيعيَّة يمنع تكبيرهُ الى اي حد اريد . والمسأَلة المهمة هي الى اي حد يمكن تكبيرهُ وتبقى ادارتهُ ميسورة

واول شيء يعترض تكبير جرم البلون مقاومة الهواء لهُ وهو مسرع فيهِ فان اكثر القوة التي تستعمل لتسيير القطرات البخارية ينفق على مقاومة الهواء لها فيجب ان ينفق اضعاف اضعاف تلك القوة على مقاومة الهواء لبلون يحمل ما يحملهُ القطار البخاري ويسير بسرعتهِ اي اذا صنعنا بلوناً يحمل من الناس والبضائع ما يحملهُ قطار بخاري ويسير بسرعة مثل سرعتهِ وجب ان نضع في ذلك البلون آلات بخارية قوتها تزيد على قوة آلات القطار البخاري مرارًا كثيرة وتحرق فيها من الفحم او من الوقود ايًّا كان نوعهُ اضعاف اضعاف ما يحرق في القطار البخاري . فاذا بلغت اجرة نقل القنطار في القطار البخاري خمسة غروش فلا يبعد ان تبلغ اجرة نقلهِ في البلون مئة غرش او مئتي غرش والمسافة واحدة والسرعة واحدة . فلا يحتمل ان يستعمل البلون من باب تجاري الَّا اذا كشف العلم نواميس غير معروفة من نواميس المادَّة لا دليل الآن على وجودها

ولكن لاستعمال البلون مزايا على سكة الحديد لا يصحُّ اغفالها فاولاً لا يلزم لهُ مد الخطوط الحديدية وهي كثيرة النفقة جدًّا وثانياً توجد بقاع من الارض لا يمكن مد سكة الحديد اليها كالاصقاع القطبيَّة فهذه يمكن البلوغ اليها بالبلون ولكن الاماكن التي من هذا القبيل قليلة جدًّا وليس لها شأن كبير وما بقي من الاماكن التي لم تصل اليها سكك الحديد حتى الآن ستصل اليها عاجلاً او آجلاً ومهما كانت نفقاتها كثيرة فهي ليست شيئاً في جنب النفقات اللازمة لنقل الركاب والبضائع بالبلونات هذا اذا سهل عمل بلون يحمل الركاب والبضائع وكان الخطر من ركوبهِ والنقل بهِ قليلاً جدًّا كالخطر من ركوب سكك الحديد والسفن البخارية ولكن اين تلك السهولة واي امان لمن يسير على متن الريح بالنسبة الى مَن يسير على بساط الارض

وقد اهتمت الدول الاوربيَّة بالبلون لاستعمالهِ في الحرب ولا شبهة في فائدتهِ للاستطلاع ولكن هل من فائدة لهُ في الهجوم على العدو اي في نقل الجنود والقاء القنابل على الحصون والمدن ولا سيما اذا كانت البلاد جزيرة مثل انكلترا يسهل الوصول اليها بالبلون ويصعب بغيرهِ وقت الحرب

ان جرم البلون كبير جدًّا فلا يخطئهُ رصاص العدو ورصاصة واحدة تخرقهُ وتتلفهُ

مهما كانت صغيرة واذا كانت مما يتفرقع اشعلت ما فيهِ من الغاز فيحترق ويهلك من فيهِ · ورجل واحد معهُ بندقية كثيرة الطلقات يستطيع ان يتلف عددًا كبيرًا من البلونات قبلما يعلم الذين فيها اين هو · وكم بلون يلزم لنقل جيش كبير يخشى شرهُ · ولا بدَّ لهذه البلونات ان تبيّت العدو ليلاً او في الصباح حين يغشاها الضباب والاَّ رآها العدو واتلفها حالاً · وكيف يتيسر لها النزول من الهواء في حالك الظلام او حينما يكون الضباب مغطيًا الارض لان الذين في البلون لا يعلمون اين هم الاَّ من مشاهدة الارض تحتهم · نعم قد يعينون موقعهم من مراقبة الشمس والنجوم ولكن ذلك صعب ولا يمكن التدقيق فيهِ كما يمكن في السفن البحرية

هذا من حيث استعمال البلون لنقل الجنود اما من حيث استعمالهُ للهجوم اي لاطلاق المدافع وطرح الديناميت فلا تطلق منهُ الاَّ مدافع صغيرة جدًّا لا يعتدُّ بها في حروب هذه الايام واذا القى الدينامت في اماكن مزدحمة بالسكان مثل مدينة لندن اضرَّ بها ولكن ذلك ممنوع بقوانين الحرب الحاضرة · وغاية ما يستطيعهُ من الضرر غير الممنوع انهُ يطرح الديناميت على الحصون والسفن الحربيَّة ولكن الديناميت الذي يطرح طرحًا لا يؤَثر مثل الديناميت الذي يطلق اطلاقًا كالتربيد ونحوهِ · ويسهل تسديد المدافع عمودية الى البلون حتى تصل قنابلها الى علو ميلين وقنبلة واحدة تحرق البلون وتتلفهُ · وقنبلة الديناميت التي يطرحها البلون عن علو ميلين يجب ان تكون صغيرة خفيفة لان الهواء هناك خفيف جدًّا يبلغ ثقلهُ النوعي ربع ثقلهِ على سطح الارض فلا يستطيع البلون ان يحمل قنابل ثقيلة · ولذلك فاحتمال ضرر الحصون بقنابل الديناميت التي تطرح من البلونات قليل جدًّا

وطرح قنابل الديناميت على السفن الحربيَّة اقل ضررًا لان البلون يكون سائرًا ولا يسهل على مَن فيهِ معرفة مقدار سيرهِ بالتحقيق ولا معرفة مقدار سير السفينة بالتحقيق حتى اذا القيت قنبلة من البلون تصل الى السفينة فاذا كان في بلون مئة قنبلة وزن كل منها طن والقاها على سفينة حربيَّة من علو ميلين فالمرجح انهُ لا يصيبها منها الاَّ قنبلتان او ثلاث وهذه القنابل لا تضر السفينة باكثر من ثغرة تثغرها في ظهرها اما جوانبها فتبقى سليمة · ثم ان البلون الذي يحمل مئة قنبلة من هذه القنابل يجب ان تكون سعتهُ اللازمة لحمل القنابل وحدها خمس مئة الف متر مكعب وذلك يعادل اسطوانة قطرها اكثر من ٢٥ مترًا وطولها الف متر

ولذلك كلهِ لا يحق لانكلترا ان توجس اقل خيفة من ان يهاجمها عدو بالبلونات · وما الحرب بالآلات الطيارة الاَّ من قبيل التخيلات الشعرية

طيارة ريت وسهولة الطيران

جاء في الفصل السابق ان الطيران بعيد او مستحيل من باب تجاري ولكن اعمال الناس لا يقصد بها الكسب دائمًا فالذي يركب اوتوموبيلهُ ويخرج بهِ للنزهة ينفق عليهِ في يومهِ خمسين غرشًا او مئة غرش وهو لو ركب الترامواي الكهربائي لسار تلك المسافة عينها بغرشين او ثلاثة . والذي يركب يختهُ ويسير في عرض البحار من مرفإٍ الى آخر ينفق عليهِ في سنتهِ الوفًا من الجنيهات وهو لو ركب سفينة بخارية من سفن التجار لاكتفى بعشر تلك النفقة

ويظهر لنا ان الطيارة التي صنعها ولبور ريت واخوهُ ستستعمل يومًا ما كما يستعمل الاوتوموبيل حتى اذا خرجتَ الى النزهة رأيت عشرات منها وكل طيارة لا تزيد في طولها وعرضها على الاوتوموبيل الكبير وراكبها يطير بها فوق الارض ويسير بسرعة الطيور . نعم لا تصير هذه الطيارة بحيث تنقل بها البضائع كالمركبات التي تجرها الدواب او كالمركبات البخارية ولا تناظر الترامواي الكهربائي ولكنها تقوم مقام البيسكل وقد تقوم مقام الاوتوموبيل وتمتاز عليهِ في كونها تحمل راكبها فوق الاشجار والجدان وتسير بهِ في اماكن لا طرق فيها . وايضاحًا لذلك نشرح طيارةَ ريت وما عُمل بها حتى الآن

تؤلف هذه الطيارة من سطحين منبسطين متوازيين ينصب احدهما فوق الآخر طول كلٍّ منهما ١٢ مترًا وعرضهُ متران والبعد بينهما ست اقدام اي اقل من مترين قليلاً والعوارض المبسوط عليها هذان السطحان من الخشب الخفيف المتين وكذلك العوارض او العصي الفاصلة بين السطحين . والسطحان من نسيج رقيق متين كالشاش المعروف بالموصلينا . فالطيارة مثل بيت طويل ضيق لهُ سطح من قماش وارض من قماش وجوانبهُ الاربعة مفتوحة للهواء وينتأ منهُ عوارض دقيقة تتصالب معهُ متصلة بدفة مقدمة ودفة مؤخرة وكل دفة منها سطحان صغيران من القماش احداهما افقية والاخرى عمودية . وهما كالجناحين للطيارة ويوضع داخل هذا البيت آلة غازولين تدير الدفتين . وثقل البيت وحدهُ مع الآلة ٨٠٠ ليبرة وثقلهُ مع ثقل الرجلين الذي يركبانهِ والوقود والماء ١١٥٠ ليبرة ومساحة السطحين والدفة الافقية ٥٧٥ قدمًا مربعة فكل قدم مربعة منها تحمل ليبرتين من ثقل الطيارة والرجلين ويقال ان القدم المربعة في بعض الطيارات الفرنسوية تحمل ثلاث ليبرات ونصف ليبرة فطيارة ريت غير مثقلة بحملها ولذلك تسير بسرعة فائقة فقد جاء في الانباء البرقية الاخيرة ان سرعتها بلغت اربعين ميلاً في الساعة . والسرعة تتوقف على ادارة السطحين لا على سرعة

الآلة المحركة· والآلة المحركة تسيّر الطيارة برفاص لولبي من الخشب قطرهُ ست اقدام وآلة الغازولين هذه قوتها ٢٥ حصانًا

واكبر اعتراض يعترض بهِ على هذه الطيّارة انها اذا اصابت دفتها آفة ما او اذا اصاب مديرها امر منعهُ من ادارتها سقطت على الارض بمن فيها وليس الامر كذلك في طيارة فرمن لان هذه لا تقع على الارض لاقل علّة

وطيارة ريت تجري اولاً على عجلتين على خطين من الحديد الى ان تصير سرعتها كافية للصعود في الهواء والغالب ان تصير سرعتها كافية بعد ما تسير مئة قدم او اقل

وقد كتب المستر ريت واخوهُ في مجلة السنتشري الاميركية يقولان ان الطيارة توضع مواجهة للريح على خطين كخطوط سكة الحديد وتدار الآلة التي فيها وتجلس انت في مكانك الى جانب مدير الطيارة وتكون الطيارة مربوطة بحبل فتفكهُ ويكون معها رجل واقف على الارض فيدفعها ويجري معها وقبلما يسير خمسين قدمًا تكون سرعتها قد صارت اشد من سرعتهِ حتى اذا قاربت آخر الخطين حرَّك مديرها الدفة المقدمة فترتفع الطيارة عن الخطين وتسبح في الهواء حتى اذا صارت على ارتفاع مئة قدم من الارض لم تعد تشعر بحركتها واذا لم تمكّن برنيطتك على رأسك اطارتها الريح عنهُ . ثم يحرك المدير الجناح الايمن فتدور الطيارة الى اليسار ولكنك لا تشعر بشيء كما يشعر من دارت بهِ المركبة بغتةً · وترى الاشباح تحتك على الارض تمرُّ مرَّ السحاب حتى اذا عادت الطيارة الى فوق المكان الذي طارت منهُ اوقف مديرها الآلة المحركة وجعلت الطيارة تهبط على سطح مائل الى ان تصل الى الارض

وظاهر مما تقدم ان مساحة سطحي هذه الطيارة كبيرة جدًّا فان طول كلٍّ منهما ١٢ مترًا وانهُ لا بدَّ لها من عجلة تجري عليها اولاً على خطين من خطوط سكة الحديد ولا يتيسر وجود ذلك في كل مكان وانهُ لا بدَّ لها من رجل يدفعها بيدهِ وهي على الارض وهذه الشروط كلها مما يمنع استعمالها استعمال الاوتوموبيل ولكن اثبت احد المشتغلين بعمل هذه الطيارات انهُ يمكن عمل طيارة ثقلها ١٥٠ ليبرة فقط فتحمل رجلين وتطير بهما على ما جاء في العدد الاخير من السينتفك اميركان· فاذا ثبت ذلك فتكون مساحة هذه الطيارة نحو ثمن مساحة طيارة ريت ورجلان يحملانها من مكان الى آخر ولا مانع يمنع اتصال العجلتين بها او جعلها اربعًا متصلة بالطيارة فتجري عليها اولاً كما يجري الطائر الكبير على رجليهِ قبلما يطير. واذا كانت على هذه الدرجة من الخفة فلا داعي لخطين حديدين تجري عليهما اولاً

فاذا ثبت الامر الذي ذكرتهُ السينتفك اميركان فلا نرى في النواميس الطبيعية ما

يمنع تحقيق بقية الامور وحينئذٍ يصير الناس يذهبون بطياراتهم كما يذهبون بسياراتهم او درَّاجاتهم و يطيرون بها من مكان الى آخر كالطيور ولو لم تستعمل لنقل الناس والبضائع كالسفن وسكك الحديد

حركات النبات

ملخصة من خطبة الرئاسة للاستاذ فرنسيس دارون رئيس مجمع تقدُّم العلوم البريطاني الذي التأَم في ٢ سبتمبر الماضي

لا بدَّ لي قبل الدخول في موضوع خطبتي من ان اشير الى الخسارة التي خسرها المجمع البريطاني بموت لورد كلفن فقد انضمَّ الى هذا المجمع سنة ١٨٤٧ وبقي يتردد عليهِ اكثر من خمسين سنة . ولسنا الآن نتكلم على عملهِ في العالم ولا على مقامهِ في عيون اصدقائهِ بل على تأثيرهِ في الذين لم يكن يعرفهم شخصيًّا فيظهر لي انهُ كانت تنتشر منهُ قوة سحريَّة تسحر الذين لا يعرفونهُ كما تسحر معارفهُ ولذلك فقدوهُ هم كما فقدهُ اصدقاؤُهُ . وفقد اعضاء هذا المجمع ايضاً صديقهم السر جون اڤانس الذي رأَسهم في اجتماع تورنتو سنة ١٨٩٧ ولقد كان يواظب على اجتماعات المجمع من حين انضمَّ اليهِ سنة ١٨٦١ فقد فقدنا شخصهُ المحبوب ومشوراتهِ الحكيمة

واسمحوا لي ان اشير الى شخص آخر وهو السر جوزف هوكر الذي كان رئيساً لقسم النبات في هذا المجمع منذ اربعين سنة وتكلَّم حينئذٍ مدافعاً عن مذهب النشوء "بفصاحة ومهارة" كما قال والدي . و يسرُّ كل اعضاء هذا المجمع ان السر جوزف هوكر لم يزل مواظباً على الاشتغال بالمواضيع التي ارتقت في يدهِ والتي اعترف لهُ الجميع انهُ ابن بجدتها وحامي حقيقتها

ولقد تنتظرون مني ان اتلو عليكم خلاصة ما تمَّ في مذهب النشوء منذ خمسين سنة اي منذ اول يوليو سنة ١٨٥٨ حينما أُعلن مذهب اصل الانواع بواسطة الانتخاب الطبيعي بلسان المستر دارون والمستر ولس . وجمع هذه الخلاصة من الاعمال الكبيرة التي لا استطيعها وغاية ما تنتظرونهُ من رئيسكم ان يكلمكم على المواضيع التي اشتغل بها بنفسهِ ولقد كان اشتغالي بحركات النبات فعن هذا الموضوع اتكلَّم وبهِ ابتدئُ . ومرادي ان ابيّن لكم بنوع عام كيف ان التغيرات التي تحدث حول النبات تؤَثر فيهِ وتجعلهُ يتحرك بعض الحركات ثم

ابين ان ما يصدق على التغيرات الوقتية التي تحدث في النبات ونسميها حركات يصدق ايضاً على التغيرات الدائمة التي نقول انها بنائية اي في بنية النبات

وعندي انهُ اذا كان درس حركات النبات يتناول المنبهات وفعلها بهِ فالتغيرات الحادثة في بنيتهِ تجري هذا المجرى ويجب ان يبحث في الموضوعين على اسلوب واحد ولهذا شأن كبير لانهُ يدل على ان ما نراهُ في حركات النبات مما يشير الى مبدإِ العادة او الذاكرة لهُ محل في بناء النبات وعليهِ يتمشَّى تكوُّن الحي من البيضة . ولقد حاول كثيرون ربط الذاكرة بالوراثة وسأُحاول انا ايضاً ذلك على اسلوب آخر وهو وراثة الصفات المكتسبة ولو حسبهُ بعضكم من الامور التي انتقضت

الحركات

كتب ابي سنة ١٨٨٠ في كتابهِ عن حركات النبات " انهُ يستحيل ان لا نندهش من المشابهة بين حركات النبات المذكورة آنفاً وكثير من الحركات التي تتحركها الحيوانات الدنيا على غير ادراك منها " . وقد وجَّه ساخ الانظار في العام السابق الى المشابهة الجوهرية بين تأثُّر النباتات وتأثر الحيوانات . والآن لا نقول ان النبات يتكلَّم كما يقال في قصص الاولاد ولكننا نقول ان النباتات والحيوانات متشابهة في انفعالها بالمؤَثرات وان ذلك صار من الامور المتعارفة

ومما يستغرب في امر المؤَثرات ونتائجها ان مقدار الاثر لا ينطبق دائماً على مقدار المؤثر ولكن لا وجه للاستغراب لاننا نعرف المؤثر والاثر الذي ينتجهُ ولا نعرف الامور المتوسطة بينهما في تركيب الجسم الحي كما ان قذف القنبلة من المدفع لا يساوي فعل الكبسول الذي يحرق الذخير بل يزيد عليهِ كثيراً لانهُ ناتج عن القوى المذخورة في حبوب البارود . وما يقال عن فعل المؤَثرات بالنبات يقال عن فعلها بالحيوان

التغيرات البنائية

اي التغيرات التي تحدث في بنية النبات والحيوان تبعاً للمؤَثرات . رأى كابس ان نوعاً من الفطر ينمو على اجسام الذباب الميت ويبقى نامياً ست سنوات متوالية من غير ان تظهر فيهِ اعضاء التوليد ثم اخذ قطعة منهُ وزرعها في مكان آخر فظهرت فيها اعضاء التوليد حالاً

وزُرع نوع من الطحلب الاخضر في سائل فيهِ قليل من مادة مغذية فجعل ينمو بانقسام الحويصلات . وزُرع في ماء نقي في نور ساطع فنما على اسلوب آخر بتزاوج دقائقهِ . ومن ذلك ان نوعاً آخر من النباتات الدنيا اذا زرع في يوم رطب انتج بزوراً بوضعهِ في الماء إما

في النور او في الظلام ولكنهُ اذا زرع في مذوب معلوم لم ينتج بزورًا الاَّ اذا وضع في الظلام. ومن النبات ما يتغير لون زهرهِ من الازرق الى الابيض ومن الابيض الى الازرق حسب تغير احوال زراعتهِ. وتتغير الازهار على صور مختلفة بتغير الاحوال المباشرة للنبات

وظاهر من ذلك ان الاثر يبقى ثابتًا في النبات ويجري النبات عليهِ ولو زال المؤَثر كأنهُ يتذكرهُ وينفعل بهِ وهذا اول اصل طبيعي للذاكرة. وما يصدق على النبات من هذا القبيل يصدق على الحيوان بنوع عام فان احوال الحيوانات العليا حتى الانسان نفسهِ تتوقف كثيرًا على تاريخها فالحالة الواحدة منها تتوقف على حالتهِ الفسيولوجيَّة الحاضرة التي اوصلتهُ اليها المؤَثرات التي اثرت فيهِ والانفعالات التي انفعل بها والفرق بين الحيوانات العليا والدنيا من هذا القبيل انما هو في الكم لا في الكيف

العادة والحركة

من النبات ما تذبل اوراقهُ ليلاً كالسنط ثم تنتعش نهارًا فيقال انهُ ينام ليلاً ويستيقظ نهارًا وان ذلك حادث من فعل النور بهِ كما يفعل بالواح التصوير وبالراديومتر. ولكن اذا وضعنا هذا النبات نفسهُ في غرفة مظلمة فان اوراقهُ تذبل فيها ليلاً وتنتعش نهارًا ولو لم ترَ نور الشمس فتفعل ذلك بحكم العادة اي ان تعاقب النهار والليل على ذلك النبات اوجد فيهِ عادة يعود اليها كل يوم. وحيث ان المؤَثر الخارجي قد زال والنبات في الغرفة المظلمة فالذي اثر فيهِ هو مؤَثر داخلي ولذلك يمكن تعريف العادة بانها نتيجة توالي المؤَثرات وتوالي آثارها حتى ترتبط تلك الآثار ارتباطًا يجعلها تتوالى من نفسها ولو زالت المؤَثرات

وهذا يشبه المثل الذي فرضهُ هربرت سبنسر وهو انهُ اذا وجد حيوان مائي بسيط يقبض اهدابهُ اذا لمستها سمكة او قطعة من نبات البحر فاذا صارت الاسماك والاعشاب تلمسهُ في النور صار اللمس والنور يؤَثران فيهِ تأْثيرين متصلين في وقت واحد ثم يصير يتأَثر من النور وحدهُ لانهُ يعلقهُ بالمؤَثر الآخر ويصير ينقبض بالنور ولو لم يلمس

وقد بيَّن جنس اصل الذاكرة في الحيوانات الدنيا كالنقاعيات فاذا صببت ماءً فيهِ لَعَلٌ على حيوان من هذه الحيوانات الدنيا اثَّر فيهِ اولاً اثرًا غير ظاهر واذا واظبت على صب ذلك الماء زاد الاثر فالتوى الحيوان الى جانب من جانبيهِ واذا كررت صبَّ الماءِ دار الحيوان وغيَّر جهة سيرهِ ثم اذا طال صب الماء ايضًا عاد الحيوان الى انبوبهِ الذي خرج منهُ. واذا تكرَّر صب هذا الماء عليهِ صار ينفعل الفعل الاخير اي يرجع الى انبوبهِ حالما يصيبهُ الماء من غير ان يتدرَّج على الحالات الاربع المار ذكرها. اي ان الشيء اذا تكرَّر اسرع

فعلهُ واسرع الوصول الى النتيجة الاخيرة وهذا نفس ما يحدث في الذاكرة وائتلاف الافكار واحراز المعارف في الناس انفسهم

وقد اوضح كيبل فعل العادة بالحيوانات الدنيا من مراقبتهِ طبائع حيوانات صغيرة تشبه الدود توجد على شواطىء برتني حيث المدُّ والجزر فاذا كان الجزر خرجت هذه الحيوانات واجتمعت في بقع خضراء فاذا عاد المد وغطاها عادت الى مخابئها · ثم نقلت هذه الحيوانات الى حوض الحيوانات المائية فبقيت مدة تختفي في زمن المد مع انها بعيدة عن فعلهِ كانها تفعل ذلك بعادة تمكنت منها

وعادات الانسان من هذا القبيل فاذا اعتاد ان يسير في طريق كل يوم ويدور منها كلما وصل الى نقطة معلومة فانهُ يصير يدور كلما وصل الى تلك النقطة على غير انتباه ولا يفسّر ذلك قولنا ان المحرك الذي يحركهُ للسير كل يوم يكون من مقتضاه ان يصل الى تلك النقطة ويعود منها كمن يأخذ تذكرةَ ذهاب واياب بسكة الحديد وانما يفسر رجوعهُ بانهُ نتيجة اتصال الافعال العصبيَّة بعضها ببعض من قبيل ائتلاف الافكار · وعلى هذا النمط يستيقظ الانسان في ساعة معلومة صباحاً اذا اعتاد ذلك وعليهِ ايضاً تجري افعال النبات التي تنتاب في اوقات معلومة كذبول الاوراق ليلاً اي انها استمرار فعل مؤثر زال وبقي اثرهُ

وقد يعترض على ذلك بان ائتلاف الافكار يقتضي وجود الاعصاب والنبات لااعصاب لهُ · ولكن لا ينكر ان في النبات خاصتين على الاقل من خواص الحيوان الاولى شدة التأثر ببعض المؤثرات والثانية نقل هذا التأثر من جزء الى آخر من اجزاء النبات · نعم ليس في النبات مجموع عصبي مركزي وليس فيهِ الاَّ نظام مركَّب من النويَّات ولكن لهذه النويات بعض خواص الخلايا العصبيَّة وبعضها خيوط تفعل فعل الاعصاب وقد قال سبنسر "انهُ كلما تأثر العصب بمؤثر ما صار اقبل للتأثر بذلك المؤثر" افلا يصدق ذلك على النباتات كما يصدق على النقاعيات · وقد ابنا انهُ يبقى في النبات اثر المؤثرات الخارجية كما يبقى في الحيوان فلا مانع يمنع ائتلاف هذه المؤثرات في النبات كما تأتلف في الحيوان

ورب معترض يقول ان ائتلاف المؤثرات يقتضي وجود شيء من الوجدان اي شعور الحيوان بانهُ موجود · ويستحيل علينا ان نعرف هل يشعر النبات انهُ موجود او لا يشعر ولكن ناموس الاتصال بين الاحياء يقتضي ان يوجد فيها كلها شيء من القوة العقليَّة واذا صحَّ ذلك وجب علينا ان نعتقد ان في النبات شيئاً من الوجدان الذي فينا

ومذهبي انهُ اذا اعتبرنا التأثر بالمؤَثرات الخارجيَّة فالنبات والانسان من قبيل واحد لا فرق بينهما ولكن اذا نظرنا الى تصرف النبات والانسان بهذه المؤَثرات وجدنا الفرق بينهما كبيرًا جدًّا · وارى نفسي مضطرًا الى القول بان التذكر في كل الاحياء يتوقف على التغيرات التي تحدث في البروتوبلازم ولذلك يجوز ان تستعمل هذه التغيرات دليلاً على الافعال التي يقال لها عادات

العادة في بناء الاجسام

نظرنا في ما يكون في الحركات من الذاكرة وقد ابنت ان التغيرات التي تحدث في بنية الاجسام هي انفعالات ناتجة عن مؤَثرات مثل المؤَثرات التي تحدث التغيرات الوقتية · وعندي ان اوضح امثلة العادة موجود في ابنية الاجسام الحيَّة وانفعالها بالمؤَثرات الخارجيَّة فالحي يتكوَّن من جرثومة اصلية بسلسلة متتابعة من النمو والانقسام وكل حلقة من هذه السلسلة تتبع التي قبلها كما تتابع الاعمال التي تعمل بمجرَّد العادة · وما التولُّد سوى نوع من العادة اي انهُ سلسلة من الافعال يتلو بعضها بعضًا بعد زوال الفواعل التي كانت تفعلها اصلاً · وبين التولد والعادة مشابهة حقيقية لا وهمية ولذلك قلت ان للذاكرة محلاًّ في بناء الاجسام كما لها محل في الاعمال الوقتية التي تعملها الاجسام الحيَّة · ولا ينكر ان في ادوار التولُّد الصفتين اللتين تكونان في العادة وهما الثبوت حتى يصير العمل آليًا والتغير حتى يمكن تغيره ولو قليلاً . فان العادة لا تكون ثابتة دائمًا بل قد يعتريها التغير على اوجه مختلفة فقد يُنسى بعضها وقد يضاف اليها انفعالات جديدة · وكذلك التولُّد فان الدرجات الاولى منهُ تجري على نسق واحد كأنَّ امورها كلها ثابتة والدرجات الاخيرة كثيرة التغيُّر كأَنَّ كثيرًا من امورها متغير · وقد ابان والدي انهُ " اذا حسبنا ان الانواع تنوعات ثابتة الخواص حقَّ لنا ان ننتظر تغيرًا في اعضائها التي تغيرت منذ عهد قريب ولذلك فالصفات التي تميز النوع اكثر تغيرًا من الصفات التي تميز الجنس " · وهذا يصدق على العادة فاذا اعتاد رجل من صغرهِ ان يكرّر جملة معلومة ثم زاد عليها في كهولتهِ بعض الكلمات فانهُ يجد تغيير الزيادة اسهل من تغيير الاصل

ومن المقرر ان الحيَّ الذي يتولد من بيضة يمر في نموهِ على الاطوار التي مرَّت عليها اسلافهُ في سلسلة نشوئها · وهذا يماثل ما يحدث في الذاكرة فكم من مرة نحاول ان نتذكر بيتًا من قصيدة فلا يخطر على بالنا ما لم نتلُ القصيدة من اولها الى ان نصل الى ذلك البيت كأنَّ كل بيت منها ينبه الذهن الى البيت الذي بعدهُ

وقد ذهب هرنج الى ان الذاكرة والوراثة من قبيل واحد وقال "ان بين ما انا عليهِ اليوم وما كنت عليهِ امس الليلَ - والنومَ وفَقْد الشعور ولا موصل بينهما الاَّ الذاكرة" وكذلك يوجد فاصل بين كل حي وما يتولد منهُ ولا يصل بينهما الاَّ الذاكرة الموجودة في خلايا الجراثيم التي يتولد الحي منها · وكل حي متصلٌ بالاصل الذي يتولد منهُ بالذاكرة · وخلايا الجراثيم التي يتكون الجنين منها متصلة بالجسم كلهِ حتى تضاف اليها آثار جديدة كلما فعلت الفواعل بالجسم الذي هي منهُ · وهذا يضطرنا الى التسليم بمذهب الوراثة الجسدية او وراثة الصفات المكتسبة · ولهذا الموضوع اي لوراثة الصفات المكتسبة شأن كبير في وراثة نتائج التعليم والتهذيب او التغرير والتضليل او التحسين والتشويه او الاستعمال والاهمال · وقد تكون وراثة الصفات المكتسبة اصلاً اساسيًّا في النشوء والارتقاء

[ثم شرح الخطيب مذهب وممن وما يُعترض بهِ عليهِ وما فيهِ مما يؤيد المذهب الذي ذهب هو اليهِ اي ان آثار المؤثرات تحفظ في الخلايا والجراثيم التي يتكون الجسم منها وتظهر بعد ذلك بفعل مثل فعل الذاكرة · الى ان قال] فالكلب الذي يهارش الكلاب ويعضها قد يعض شفتيهِ احيانًا فيصير يبعد شفتيهِ كلما هجم على غيرهِ وتتمكن منهُ هذه العادة حتى تصير صفة موروثة ويصير يكشر عن انيابهِ كلما اغتاظ · ولعلَّ عادة الكشر عن الاسنان وقت الغيظ موروثة في الناس من اسلافهم الذين كانوا يعضون غيرهم ويبعدون شفاههم لئلاَّ تصيبها اسنانهم · وما الاحياء سوى سلسلة كبيرة متصلة الحلق وكل حلقة منها تعلمت بالاختبار شيئًا كان يجهلهُ اسلافها ورسخ بعض ما تعلمتهُ فيها وظهر في نسلها بنوع من التذكُّر · ومذهب التذكُّر هذا يقوي مذهب النشوء بالانتخاب الطبيعي ويوضحهُ فانهُ اذا كان مؤدَّى النشوء تدريب الاحياء وتعويدها فهلاك الاحياء التي لا تتعلم ولا تتدرب هو جزءٌ جوهري من النشوء ومنهُ اكبر فائدة في نشوئها · ولا يكتفي الانتخاب الطبيعي بذلك بل يرقي الاحياء اي يعلّم كل نوع جديد منها ما تعلمهُ سلفهُ ويزيد عليهِ كما يفعل من يربي الحيوانات ويدربها على الاعمال المدهشة التي تعملها في المشاهد العمومية · فيفعل النشوءُ ما يفعلهُ المدرب وسبيلهُ الصبر والمواظبة وطول الزمان

اسباب الاحتلال البريطاني

(٧)

لما تمرَّد الجيش المصري في ٩ سبتمبر خاف المداينون الفرنسويون على ديونهم فاقترحت الحكومة الفرنسوية على الحكومة الانكليزية ان تشتركا في المراقبة عليهِ وترسلا جنرالين من قوَّادهما ليتوليا امرهُ وتدريبهُ . فقالت الحكومة الانكليزية للحكومة الفرنسوية هب ان الجيش المصري لم يطع اوامر هذين الجنرالين فماذا تفعل . فاجابت الحكومة الفرنسوية انهُ يجب حينئذٍ على انكلترا وفرنسا ان تؤيداهما وترسلا بوارجهما الى الاسكندرية . وأُرسل هذا الاقتراح الى مصر فازدراهُ شريف باشا والسر اكلند كولفن ورجعت فرنسا عنهُ الى ان تغيرت الوزارة الفرنسويَّة في اواسط ديسمبر سنة ١٨٨١ وجاء غمبتا وهو في عنفوان قوته فقال للورد ليونس سفير انكلترا انهُ لا بدَّ من تأييد الخديوي وجعلهِ يثق بمساعدة فرنسا وانكلترا لهُ واقناع خصومهِ نصراء اسمعيل باشا وحليم باشا ان فرنسا وانكلترا لا تتخليان عنهُ ولا تسلمان بتوسط الباب العالي. وقال انهُ قد حان الوقت للاشتراك في العمل اذا دعت الحاجة الى ذلك

ولما بلغ كلام غمبتا اذن لورد غرانفل وزير انكلترا اجاب بما يستفاد منهُ تأييد الحكومة الفرنسويَّة في وجوب الاهتمام بالمسألة المصرية واظهار اتفاقهما ولكن لا بدَّ من النظر والتدقيق قبل اختيار السبيل الذي تجريان فيهِ اذا عاد الاضطراب الى مصر

وفي ٢٤ ديسمبر قال المسيو غمبتا ان مجلس الاعيان المصري قارب الاجتماع وانهُ لا بدَّ وان يغير في مركز مصر السياسي فيكون من الحكمة ان فرنسا وانكلترا تخبران معتمديهما ليبلغا الخديوي انهما تؤيدانهِ لكي يتقوَّى على تعزيز سلطتهِ فيكون ذلك بمثابة الخطوة الاولى من اتفاقهما في المسألة المصرية حتى اذا عرض مايدعو الى عمل آخر عملاهُ معاً متفقتين

وكتبت انكلترا الى معتمدها في مصر تستشيرهُ في ذلك فاجاب انهُ لا بأس بهِ وطلب منها ان تنتظر مذكرة كتبها السر اكلند كولفن شرح فيها حالة مصر بالتفصيل واوجب بقاء المراقبة المالية وكل ما يتعلَّق بها واخراجها من اختصاص مجلس الاعيان او مجلس النواب . واوجب ايضاً بقاء الموظفين الاوربيين في المناصب التي هم فيها لاتمام اصلاح الحكومة

ووصلت هذه المذكرة الى لندن في ٢ يناير وفي ذلك اليوم عينهِ وصلت اليها اللائحة

التي كتبها غمبتا لترسل الى مصر باسم انكلترا وفرنسا · وارسلت انكلترا هذه اللائحة الى معتمدها في مصر بالتلغراف في ٦ يناير وارسلت فرنسا لائحة مثلها الى معتمدها فابلغها المعتمدان الى الخديوي فاعرب لهما عن شكرهِ لدولتيهما · ولكن نواب الامَّة المصرية اغتاظوا من هذه اللائحة وحسبوا ان غرضها تأييد الخديوي عليهم ونزع سلطة الباب العالي · وكانت نتيجتها اتحاد النواب والجيش على مقاومة انكلترا وفرنسا والرجوع الى تركيا لانقاذهم من اعتداء اوربا

وكان مراد الحكومة الانكليزية انهُ اذا دعت الضرورة الى المداخلة الفعلية في شؤُون مصر فلا بدَّ من الالتجاء الى الدولة العلية واما فرنسا فكانت تحسب ذلك ضربًا من المحال ولا ترضى بتوسط تركيا في حال من الاحوال · والظاهر ان الحكومة الانكليزية رضيت باللائحة المشتركة وما فيها من التهديد والوعيد منعًا للمداخلة الفعلية فجاءت اللائحة موجبة لهذه المداخلة وللحال شعر وزيرها لورد غرانفل بخطاءِ واراد ان يتلافى الامر بتفسير يرسلهُ الى مصر وطلب من سفير انكلترا في باريس ان يذاكر الحكومة الفرنسوية في امر هذا التفسير فاجاب غمبتا انهُ ينظر في الامر ولكنهُ لا يرى فائدة من ارسال اي تفسير كان

واراد مجلس الاعيان حينئذٍ ان ينظر في قسم من ميزانية الحكومة المصرية فاعترض المراقبان وشريف باشا على ذلك وعُرض الامر على الحكومة الانكليزية فاجاب لورد غرانفل ان لا مانع عند الحكومة الانكليزية من ان ينظر مجلس الاعيان في الميزانية · قال ذلك وهو يرغب في التخلُّص من الارتباط مع فرنسا · اما فرنسا فاجابت بانها لا تسلّم لمجلس الاعيان ان ينظر في الميزانية لئلاَّ يأُول ذلك الى ابطال ما فعلهُ قومسيون التصفية وابطال المراقبة المالية · فاضطرت الحكومة الانكليزية ان تجاري الحكومة الفرنسوية وشريف باشا في منع مجلس الاعيان من النظر في الميزانية ولكنها وضعت مشروعًا يخوّل النواب المصريين المراقبة على الايرادات وعرضتهُ على الحكومة الفرنسوية · فقال غمبتا انهُ يوافق عليهِ مبدئيًا ولكن "الموافقة مبدئيًا" في عرف السياسة لا تفيد شيئًا · ثم نقَّح المشروع تنقيحًا ازال فائدتهُ · ولما اخبر شريف باشا مجلس الاعيان بما قرَّ عليهِ قرار فرنسا وانكلترا ذهب وفد منهم الى الخديوي وطلبوا منهُ تغيير الوزارة حالاً وقدموا اليهِ نسخة من قانون اساسي ليوقعها وقالوا ان النظر في ميزانيتنا ليس من المواضيع التي يحق للدول الاجنبيَّة ان تباحثنا فيهِ . فاضطرَّ ان يجيبهم الى طلبهم وعيَّن محمود باشا سامي رئيسًا للنظار حسب طلبهم وكان ناظرًا للحربيَّة وذلك في ٣ فبراير سنة ١٨٨٢ وجعل عرابي ناظرًا للحربيَّة

ورأَى شريف باشا حينئذٍ ان لا بدَّ من رفع الامر الى الباب العالي ومجيءِ الجنود

العثمانية الى مصر لحفظ النظام فيها وكان هذا رأي الخديوي ايضاً اما غمبتا فكان مخالفاً لهما في الرأي وحاسباً ان الخطب يتفاقم بمجيء الجنود العثمانية الى القطر المصري فكتب لورد غرانفل الى لورد ليونس سفير انكلترا في باريس يقول ان مقتضى سياسة انكلترا حفظ سلطة الباب العالي على مصر واذا حدث فيها امر يدعو الى المداخلة الفعلية فالحكومة الانكليزية تعترض اشد الاعتراض على احتلال البلاد لان هذا الاحتلال يلقي المقاومة من مصر ومن تركيا ويحرك غيرة الدول الاوربيَّة ويثير الظنون في نفوسها ويؤدي الى مشاكل كثيرة وفرنسا لا ترضى ان تحتل انكلترا مصر ولا انكلترا ترضى ان تحتل فرنسا مصر ولا يناسب ان تحتلها الدولتان معاً واما احتلال الجنود العثمانية فانكلترا لا تودهُ ولكن الاعتراض عليهِ اقل من الاعتراضات على احتلال فرنسا وانكلترا كلتيهما او احتلال واحدة منهما واسلم عاقبة

وفي اليوم التالي استعفى غمبتا وخلفهُ المسيو ده فرسينه

واستخلص لورد كرومر مما لخصناهُ من كتابهِ ومما لم نلخصهُ لضيق المقام ان الحكومة الانكليزيَّة كانت تودُّ ان لا تتداخل في شؤُون مصر بالقوة الحربية وانهُ اذا كان لا بدَّ من القوة الحربيَّة وجب ان تكون من الدولة صاحبة السلطة على مصر وهي تركيا لا من فرنسا ولا من انكلترا . ولو ترك لورد غرانفل حتى يتصرف في هذه المسأَلة حسب رغبتهِ لما وقع الاحتلال على الراجح ولما وقع الاحتلال الانكليزي على الارجح . ولكنهُ انقاد لرأي غمبتا فدخل مأزقاً افضى الى الحرب والاحتلال . وقد انفردت انكلترا بذلك لان وزارة فرسينه ابت ان تشاركها بعد ان اشار غمبتا بهذه المشاركة

وحاولت انكلترا حينئذٍ ان تغير بعض البنود في قانون مجلس النواب المصري فقال لها المسيو ده فرسينه " انهُ من السخافة ان نفكر في شكل البساط الذي نفرشهُ في البيت والبيت مشتعل ". وزاد السر اكلند كولفن على ذلك وقال " ان البيت آخذ في التهدُّم على رؤُوسنا ونحن نفكر في بناء طبقة اخرى فوقهُ . فالبحث في القانون الاساسي عبث قبل استتباب سلطة الحكومة وقمع الثورة العسكرية "

ولم يكن عرابي يجد غير التنشيط من الاستانة ومن بعض الانكليز المؤيدين للحزب الوطني واشهرهم المستر بلنت فانهُ كان في مصر بين سنة ١٨٨١ و١٨٨٢ فالقى سهمهُ مع العرابيين ولم يخطر ببالهِ ان مساعدة الامَّة في ما تطلبهُ لا يكون بمساعدة جيشها على التمرُّد وكان يحض الامَّة على الالتصاق بالجيش والَّا اخذت اوربا بلادهم فقد ذكر الاستاذ شوينفرث

العالم الطبيعي المشهور في كتاب كتبهُ الى جريدة التيمس في ٢١ يونيو سنة ١٨٨٢ ان اهالي جرجا اروهُ تلغرافًا مرسلاً اليهم من المستر بلنت يخاطب فيهِ اعضاء مجلس النواب المصري قائلاً

Si vous allez vous désunir de l'armée, l'Europe vous annexera

اي اذا كنتم عازمين ان تنفصلوا عن الجيش فاوربا تضمكم اليها . ويعتقد لورد كرومر ان المستر بلنت كان حسن النيَّة ولو كانت نتيجة نصحهِ مناقضة لما قصد . اما نحن فلا نعتقد الاخلاص في هؤُلاء المحرّضين ولا نحسب الَّا انهم مأجورون من المداينين لحمل انكلترا على ضم البلاد اليها حتى تصير ديونهم بمأمن من كل خطر او حتى ترتفع قيمة سنداتها

ومن ثم زالت سلطة المراقبين فاستعفى المسيو دبلنير ولما رأى محمود باشا سامي رئيس النظار انهُ لا يستطيع عزل كل الموظفين الاوربيين خذلهُ الحزب الوطني واتهمهُ عرابي بالتذبذب واخذ يرقي ضباط الجيش من غير امتحان وانتشرت الفوضى في البلاد وزالت هيبة المديرين وجعلت عصابات اللصوص تسطو على القرى وكثر ابتياع الاسلحة النارية واقفلت البنوك ابوابها دون المستدينين وجعل صغار المرابين يأخذون ستة في المئة شهريًّا وهبطت اسعار الاطيان حتى ان الفدان الذي كان يباع بستين جنيهاً بيع بثمان وعشرين جنيهاً . وجعل الجنود يقولون ان الاطيان اطيانهم لا اطيان اصحابها وبدت كل علامات الثورة في البلاد وخاف اصحاب المصالح الكبيرة من الوطنيين وحاولوا الانفصال عن الجيش

وقد اعترض الباب العالي على لائحة انكلترا وفرنسا وقالت روسيا والنمسا والمانيا وايطاليا انهنَّ يردن بقاء الحالة في مصر على ما كانت عليهِ اي على ما اتفقت عليهِ الدول الاوربيَّة وما هو وارد في فرمانات الدولة العلية ذات السيادة على القطر المصري . فاستاء الباب العالي من قولهنَّ " ذات السيادة " وقال ان لهُ سلطة فعلية على البلاد وان سلطان العثمانيين هو سلطان المصريين . فعرضت انكلترا مسألة مصر على الدول الاوربيَّة وطلبت منهنَّ ان ينظرن فيها وبينما كانت المخابرات السياسية العقيمة دائرة بين الدول الاوربية حدث في مصر حادث تفاقم بهِ الخطب وهو ان تسعة عشر من الضباط الشراكسة اتُّهموا بالمؤَامرة على قتل عرابي فقبض عليهم وعلى غيرهم وفي جملتهم عثمان باشا رفقي الذي كان قبلاً ناظرًا للحربيَّة وحوكموا في مجلس عسكري سري وحكم على اربعين منهم بالنفي الى اقاصي السودان وكان عثمان باشا رفقي واحدًا منهم

باب التقريظ والانتقاد

جغرافية الشريف الادريسي

حضرة منشئي المقتطف الفاضلين

وقعت لي نسخة من كتاب نزهة المشتاق في ذكر الامصار والاقطار والبلدان والجزر والمداين والافاق . ولم يذكر فيها اسم مؤلفها ولا مكان طبعها فكتبت الى مدير المشرق اسألهُ عن ذلك بالكتاب الآتي وهو

" حضرة العالم الفاضل الاب لويس شيخو المحترم

غب الاحترام . اعرض مما حصل مؤخرًا في نوبتي كتاب في علم الجغرافيا موسوم "بنزهة المشتاق . في ذكر الامصار . والاقطار . والبلدان . والجزر . والمداين . والآفاق " . وهو في نسخة مطبوعة غير وارد فيها اسم مصنفها ولا المدينة التي طبعت فيها لكنني ارجح من هيئة حروفها وكلمة GEOGRAFIA المطبوعة على ظهر جلد الكتاب بحروف مذهبة ان ذلك كان بمدينة رومية من ايطاليا وان عهد طباعتها يتناول نحو ثلاثة قرون . وهي مؤلفة من ٣٢٦ صفحة وفي كلٍ خمسة وعشرون سطرًا بمعدل نحو ثماني كلمات لكل سطرٍ منها . وقد استفتح مصنفها الكلام فيها بما نصهُ

" بسم الله الرحمن الرحيم وبهِ الاعانة — الحمد لله رب العالمين

اما بعد اني وقفت على الكتاب المسمَّى بنزهة المشتاق في احتراق (بالحاء المهملة غلط طبع والصحيح اختراق) الآفاق . وتأملت معانيهُ ومقاصدهُ . واستحسنت مصادرهُ ومواردهُ . الاَّ انهُ اكثر القول واعاد . ونقص من ذكر بعض الاقاليم وزاد . على حسب ما احب واراد . فاخذت من كلامهِ ما وافق المراد . وما بهِ الحاجة ماسة الى معرفة المراسي والبلاد . ومن الله عزَّ وجل اسأل العون لا اله الاَّ هو وهو حسبي ونعم الوكيل "

وقد تحريت بما لديَّ من الوسائل عن واضع هذا الكتاب النفيس فلم اتوصل الى نتيجة على انني اعلم ان الكتاب الذي يشير اليهِ هذا المؤلف المجهول الاسم العيسوي المذهب هو

“نزهة المشتاق في اختراق الآفاق” للشريف ابي عبد الله محمد ابن محمد الادريسي الصقلي المولود بمدينة سبتة من قواعد بلاد المغرب سنة ٤٩٣ هجرية والمتوفى سنة ٥٦٠ . وهو كما لا يخفى احد ائمة العرب الذين اشتهروا بعلم النجوم والجغرافيا وغيرهما . وروى صاحب كشف الظنون وغيرهُ من المحققين انهُ صنف كتابهُ هذا لروجار الفرنجي الثاني صاحب صقلية وهو من اصدقاء الشريف وانجزهُ في منتصف المائة السادسة للهجرة . وورد ايضاً في كشف الظنون بخصوص الكتاب المذكور ما نصهُ . “ والمعروف انهُ اختصرهُ بعضهم ” على انهُ اغفل اسم مختصرهِ

وفي هذا الصدد اقول انني رأيت في بعض المطولات ما يستفاد منهُ ان كتاب الشريف الادريسي طبع على اصلهِ العربي برومية سنة ١٥٩٢ ميلادية عن نسخة خطية وجدت وقتئذٍ باحدى مكاتب فلورنسا وان الاستاذ جبرائيل الصهيوني مدرس اللغتين السريانية والعربية والترجمان يوحنا الحصروني وكلاهما من موارنة جبل لبنان اجابا دعوة من دعاهما وترجما الى اللاتينيَّة مختصر كتاب الشريف الادريسي وطبعت هذه الترجمة في باريس سنة ١٦١٩ . وان هاتين النسختين العربية الاصلية والترجمة اللاتينية تعتبران مختصراً عن نسخة عربية كبيرة تلفت في حريقة مكتبة الاسكريال باسبانيا سنة ١٦٧١ . فان قام برهان صحيح على هذا المختصر العربي المنسوب للادريسي وذلك بوجود نسخة منهُ او اكثر في احدى المكاتب العمومية او الخصوصية اقول “ قطعت جهيزة قول كل خطيب ” . لكنني اخشى تطرق الخطاء في هذه المسأَلة وان يكون ما ترجمهُ العالمان المذكوران هو كتاب آخر يصحُّ القول عنهُ استناداً على اشارة كشف الظنون المذكورة آنفاً اعني (والمعروف انهُ اختصرهُ بعضهم) انهُ هو النسخة التي وقعت في نوبتي كما بسطت في صدر تحريري هذا . ويجرئني على اعتبارهِ كذلك ما شاهدتهُ مؤَخراً وهو عنوان مطبوع على جلد نسخة اخرى من الكتاب نفسهِ (حوتها مكتبة احدى المدارس في بيروت) ينص ان مؤَلفها الادريسي والحقيقة انها كما قلت سابقاً لمؤَلف عيسوي نبغ في اواسط القرن السادس من التاريخ الهجري . ولا يبعد ان مشابهة مبحث الكتابين وترتيب فصولهما قد اورثا هذا الالتباس والسهو

ومع ما في ذلك كلهِ فنظراً لما اعهد في حضرتكم من الفضل جئت باسطري هذه راجياً ان تتكرموا بالافادة على صفحات مجلة مشرقكم الغراء عمَّا تعلمونهُ عن مصنف الكتاب المذكور ولا زلتم مرجعاً لكل مستفيد الداعي

بيروت في ٢٩ آذار سنة ١٩٠٨ مراد بارودي صيدلي

فاجاب حضرتهُ في العدد الرابع لشهر نيسان (ابريل) سنة ١٩٠٨ صفحة ٣٢٠ من مجلة الشرق بما نصهُ

" س سألنا جناب الصيدلي مراد افندي بارودي ما نعرف عن جغرافية الشريف الادريسي وطبعاتها

جغرافية الادريسي

ج جغرافية الشريف الادريسي من اجلّ وانفس ما وضعهُ العرب في تخطيط البلدن. وكتابهُ معنون بنزهة المشتاق في اختراق الافاق يعرف منهُ اربع نسخ كاملة اثنتان منها قديمتان مزيّنتان بخوارط عديدة ملوّنة زاهية الواحدة في مكتبة باريس العموميّة. والاخرى في خزانة كتب اكسفورد وفي المكتبتين ايضاً نسختان اخريان كاملتان دون الخوارط. وهذه الجغرافية قد نقلها اميداي جوبار الى الافرنسية عن نسختي باريس. اما النص العربي فلم يطبع منهُ الاّ بعض الاقسام كوصف الشام ووصف المغرب ووصف ايطالية. ومن الجغرافية المذكورة مختصر منهُ عدة نسخ اشهرها نسخة باريس ولا يعرف اسم صاحبها. وهذا المختصر قد طبع اولاً في رومية في مطبعة اسرة مادسيس سنة ١٥٩٢. وطبع على صورتين الاولى في العربيّة فقط دون ذكر محل الطبع والسنة وعنوانها " نزهة المشتاق في ذكر الامصار والاقطار والبلدان والجزر والمدائن والافاق " والثانية في العربية مع عنوان لاتيني والتصريح باسم المطبعة وسنة الطبع وهذا المختصر نقلهُ الى اللاتينيّة العالمان المارونيان جبرائيل الصهيوني وحنا الحصروني وطبعاهُ في باريس سنة سنة ١٦١٦ "

ولما وقفت على هذا الجواب ورأيت ان حضرتهُ اغفل سؤالي واجابني ببعض ما ذكرتهُ في خطابي كأني غير عالم بهِ كتبت اليهِ في ذلك اقول

غب الاحترام. اعرض اني تناولت منذ بضعة ايام العدد الرابع من مجلة المشرق الغراء للسنة الحالية وطالعت فيهِ جواب حضرتكم على رسالة قدمتها لكم في الشهر الماضي استعلاماً عن كتاب عربي في علم الجغرافيا عنوانهُ (نزهة المشتاق في ذكر الامصار والاقطار والبلدان والجزر والمداين والافاق) قد اسعدني الحظ مؤخرًا بان اشتريت منهُ نسخة ضممتها الى خزانة كتبي المطبوعة والمخطوطة. ومن مراجعة النظر على الرسالة المذكورة يتبين لحضرتكم ماهيتها وانها ليست سؤالاً بسيطاً تجرّد عن نصب البحث والاستقصاء

لجأت الى فضلكم في هذه القضية واملت ادراك المطلوب. على انهُ لسوء الحظ قد فاتني ذلك اذ وجدت جواب حضرتكم لا ينطبق على الغاية التي توخيتها. ويتبين الامر من اعادة

النظر على نص سوالي المتعلق بالمختصر الجغرافي الذي عندي وجوابكم عليهِ وقد اوردتموهُ معنونًا "جغرافية الادريسي" . نعم لم انسَ انني في رسالتي الاولى اتيت عرضاً على ذكر العلامة الفلكي الجغرافي المشهور بالشريف الادريسي والكتاب الذي صنفهُ للملك روجار الثاني في علم الجغرافية . وفضلاً عن ذلك لا اجهل ما كان للموماإ اليهِ من المنزلة العلمية السامية عند علماء المشرق والمغرب ولا سيما بكتابهِ هذا الموسوم "بنزهة المشتاق في اختراق الآفاق". وقد طالعت في مظانهِ كل ما قيل عنهُ حتى وانهُ كان المعول عليهِ عند الفريقين دهورًا عديدة ولدي ايضاً بعض الملاحظات على استقصاءات الفريق الثاني لكن لا محل لاستيفاء الكلام عليها في هذا المقام

وقد ذكرتم حضرتكم في جوابكم عرضاً ان لكتاب الشريف الادريسي مختصرًا مقتصرين بالتنويه بهِ ان اسم صاحبهِ غير معروف وانهُ يوجد منهُ عدة نسخ اشهرها نسخة باريس على انكم لم تتفضلوا مراعاة للمقام ببيان شيء من امر هذا المختصر فحرمتموني الفائدة المطلوب التوصل اليها بواسطتكم رغماً عن انني متخذ المختصر الذي عندي موضوعاً للسؤال والبحث عن اسم واضعهِ ليس الاَّ . وقد قلت في رسالتي الاولى مصرّحاً انهُ لرجل عيسوي نبغ في اواسط المائة السادسة للهجرة . فاعود الآن وارجوكم نظرًا لتوفر الوسائط المعتبرة لديكم ان تفيدوني عن علاقة المختصر بنسخة باريس التي اشرتم اليها — بالمختصر نسختي — والمختصر الذي يستفاد وجودهُ من رواية كشف الظنون الوارد فيها باثناء وصفهِ لكتاب الشريف الادريسي "والمعروف انهُ اختصرهُ بعضهم" وقد ذكرت الداعي الى ذلك في رسالتي السابقة

ايضاً ورد في جواب حضرتكم ان طبعة سنة ١٥٩٢ برومية هي عن نسخة المختصر الباريسية . وقد رأيت في دائرة المعارف البريطانية ان طبعة تلك السنة نقلت عن نسخة عربيَّة مخطوطة مصنفها الشريف الادريسي عُثر عليها باحدى مكاتب فلورنسا كما ذكرت قبلاً . فالقارئ يرى في هاتين الروايتين تناقضين احدهما مصدر النسخة المذكورة والاخر التباس كونها المختصر المجهول اسم صاحبهِ او الكتاب الاصلي للشريف الادريسي . فايتهما اصح يا ترى . على انني اقول لا بد من التوصل الى الحقيقة بزيادة التحري والتمحيص

وبعودي الآن الى هذا الموضوع ارجو ان لا احمل حضرتكم ثقلة كبيرة على انني واثق انكم تجدون لي عذرًا مقبولاً نظرًا لاهمية الموضوع عند القوم الساعين وراء هذه المباحث التي لا تخلو من فوائد ذات شأن . ورغبة في زيادة التمحيص والاستقصاء ارجوكم ان تتكرموا بنشر عريضتي هذه بنصها في العدد القادم من مشرقكم الاغر فعساها ان تصيب من

نضلكم وفضل بعض القراء المضطلعين نصيباً طيباً ولا زلتم من اكابر الفضل والادب

حاشية — لربما ترون حضرتكم من المناسب ان تنشروا رسالتي الاولى الوارد فيها مقدمة المختصر الذي عندي ليعرف الكتاب قراء المشرق الذين يودون البحث في هذا الموضوع . او اذا شئتم ان تقتصروا على اثبات المقدمة فقط في المحل الموافق فالامر موكول لعناية حضرتكم"

ثم كتبت اليهِ ثانيةً وثالثةً فاجاب في العدد الثاني من المشرق وهو لشهر آب (اغسطس) الماضي بما نصهُ

"س عاد جناب الفاضل مراد افندي البارودي وطلب منا زيادة ايضاح في مختصر جغرافية الادريسي المعروفة "بنزهة المشتاق ومخترق الآفاق" وما يوجد بين المختصر المطبوع في رومية من العلاقة مع المختصر الذي ذكرهُ صاحب كشف الظنون اذ قال "والمعروف انهُ اختصرهُ بعضهم"

مختصر نزهة المشتاق للادريسي

ج نجيب على هذا السؤَال ان المستشرقين الذين وصفوا كتاب الادريسي ومخطوطاتهِ الكاملة او المختصرة لم يزيدوا بياناً على ما اثبتناهُ سابقاً في جوابنا الاول لجناب المستفيد (ص ٣٢٠) واذ لم نطلع نحن عياناً على هذه المخطوطات فلا يمكنا ان نجيبهُ جواباً شافياً يروي غليلهُ . وغاية ما امكننا استخلاصهُ من اوصاف العلماء التي فيها تباين والتباس عظيم ان الشريف الادريسي الَّف كتابهُ نزهة المشتاق لروجار صاحب صقلية ومن هذا الكتاب اربع نسخ نسختان في باريس ونسختان في اكسفورد واجود هذه النسخ واكملها نسخة باريس الموسومة بالعدد **٢٢٢١** وهي كاملة وفيها ١٩ خارطة ومثلها في الجودة نسخة اكسفورد التي عددها ٣٨٣٧ — ٣٨٤٢ الاَّ انها ناقصة . ومع نفاسة هذا الكتاب الجليل لم يطبع منهُ حتى الآن الاَّ بعض الاقسام كوصف الشام ووصف ايطالية ووصف المغرب . الاَّ انهُ نقل بتمامهِ الى الفرنسوية بهمة العلامة جوبرت (Gaubert) . ويظهر ايضاً ان الشريف الادريسي صنَّف للملك غليلم الاول كتاباً جغرافيًّا اوسع دعاهُ روض الانس ونزهة النفس وهو اليوم مفقود قال العلامة دوزي (ان ابا الفدا استعان بهِ في كتابهِ تقويم البلدان ودعاهُ كتاب الممالك) . اما المختصر المدعو (نزهة المشتاق في ذكر الامصار والاقطار والبلدان والجزائر والآفاق) فيعرف منهُ ست نسخ والمستشرقون لا يعيرونها كبير بال ولذلك يعدونها دون وصفها او المقابلة بينها . وعلى رأي العلامة جوبرت ان النسخة المطبوعة في رومية سنة

١٥٩٢ هي المختصر الموجود في خزانة كتب باريس وانها هي التي نقلها سنة ١٦١٩ العالمان المارونيان جبرائيل الصهيوني وحنا الحصروني الى اللاتينيَّة وسمياها بالجغرافية النوبية (GEOGRAPHIA NUBIENSIS) هذا محصَّل بحثنا في هذا الشأن وان اسعدنا الحظ في سفرنا قريبًا الى اوربا ان نراجع هذه المخطوطات فعلنا ان شاء الله فيمكننا ان نزيد المستفيد ايضاحاً " . انتهى

انني اشكر حضرة الاب الفاضل على رجوعهِ الى هذا الموضوع رغبة في ارواء غليل المستفيد الذي لدى اطلاعهِ على الجواب المار ذكرهُ رأى كما لا بد ان يرى غيرهُ من المطلعين عليهِ انهُ جاء ايضاً غير وافٍ بالمقصود وفيهِ من التكرار لما ورد في جواب حضرتهِ الاول ومن الخروج عن الغاية المطلوبة ما لا يخفى على صاحب البصيرة . هذا فضلاً عن انهُ لم يتعرض فيهِ قط لايراد ادنى فائدة او اشارة الى مصنف ذلك المختصر " العيسوي المذهب " الذي هو اساس السؤَال والبحث . ولو اقتصر حضرتهُ على ذلك فقط لما عرَّض نفسهُ للمؤَاخذة في ما تذرَّع بهِ من الاغضاء عن اصحاب الفضل وبخسهم اشياءهم اذ قال " والمستشرقون لا يعيرون نسخ المختصر المذكور كبير بال ولذلك يعدونها دون وصفها والمقابلة بينها " . فبين حكمهِ هذا وما يعتقدُ بهِ المصنف العيسوي المومإ اليهِ كما يستفاد من قولهِ في المقدمة (وهو السبب الذي دعاهُ الى وضع الكتاب) " اما بعد انني وقفت على الكتاب المسمى بنزهة المشتاق في اختراق الافاق (كتاب الشريف الادريسي) وتأملت معانيهُ ومقاصدهُ واستحسنت مصادرهُ ومواردهُ . الَّا انهُ اكثر القول واعاد ونقَّص من ذكر بعض الاقاليم وزاد على حسب ما احبَّ واراد الخ " تناقض ظاهر يستلفت النظر . اما ما عزاهُ حضرتهُ الى المستشرقين بدون تخصيص من انهم لم يعيروا نسخ المختصر المذكور كبير بال فانهُ قول عام ولا يخلو من الغرابة وكان الاصوب لحضرتهِ ان يصرح باسم من ذهب منهم هذا المذهب

وقد قصدت الآن حدائق مجلتكم المقتطف الشهيرة مؤَملاً دانيات القطوف من ثمارها في هذه المسألة التي ابسطها على صفحاتها لكل راغب في هذه الابحاث واسلفكم الشكر الجزيل

مراد بارودي

[المقتطف] ان ما ذكرتموهُ عن الشريف الادريسي وكتابهِ نزهة المشتاق هو المعروف المذكور في الانسكلوبيذيا البريطانية وكشف الظنون وغيرهما . اما النسخة التي وقعت لكم من المختصر فقد راينا في المكتبة الخديوية نسخة مثلها مطبوعة وعلى ظهر الصفحة الاولى منها ما يأتي

في جغرافيا الكلية
De Geographia
Universali
كتاب نزهة المشتاق . في
ذكر الامصار. والاقطار.
والبلدان . والجزر
والمداين
والافاق
Hortulus
Cultissimus, mire Orbis regiones, Provincias, Insulas
Urbes, earumq. dimensiones & Ori—
zonta describens
Romae
In Typographia Medicea ;
M.D.XCII

ومقدمتها مثل مقدمة النسخة التي عندكم تماماً وكلمة اختراق بالحاء المهملة . وهي كثيرة التصحيف والخطإ المطبعي وفيها ٣٢٦ صفحة في كل صفحة ٢٥ سطرًا وارقام الصفحات غير مطبوعة عليها بل مكتوبة كتابةً بقلم الرصاص . وحيث ان اسم الكتاب ومكان طبعهِ على ظهر الصفحة الاولى التي فيها المقدمة فهذه الطبعة غير الطبعة التي عندكم ولو ماثلتها في ما ذكرتموهُ من المقدمة او تخالفها في الصفحة الاولى على الاقل . وطول الصفحة ٢٣½ سنتمتر وعرضها ١٦ سنتمترًا وطول الكتابة فيها الى آخر البروازين ١٨ سنتمترًا وعرضها ١٠ سنتمترات ولها حلية في منتصف البرواز من الجهات الاربع ولم يذكر فيها اسم المختصِر

وفي المكتبة الخديويَّة المجلد الاول من كتاب الشريف الادريسي نفسهِ الذي الَّفهُ سنة ٥٤٨ وهو خط نسخ سنة ٧٤٨ اولهُ مذهب الحواشي والفواصل وفيهِ رسوم ملونة يراد بها خرائط البلدان و يبتدئُ هكذا

" كتاب فيهِ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق

" الحمد لله ذي العظمة والسلطان والطول والامتنان والفضل والانعام . والآلاء الجسام الذي قدَّر فحكم ورزق فانعم وقضى فابرم ودبر فاتقن و بدأ فاحسن ما صور " . . الى ان قال " وان افضل ما عني بهِ الناظر واستعمل فيهِ الافكار والخواطر محاسن الملك العظيم رجار المعتز بالله المقتدر بقدرتهِ ملك صقلية وانطاكية وانكوره وفلورية امام رومية

الناصر للملة النصرانية اذ هو خير من ملك الروم بسطاً وقبضاً " وعلى ظهر هذه الصفحة اسم الكتاب تحيط بهِ رسوم مذهبة

وطول الصفحة منهُ نحو ٣١ سنتيمترًا وعرضها ٢٣½ وطول الكتابة فيها ٢٢½ وعرضها ١٦½ سنتمتر وفيها ١٣ سطرًا وفي بعض الصفحات اسطر قليلة او كلمات قليلة . وقد قابلنا بين النسخة المطبوعة والنسخة المخطوطة فرأينا المطبوع مختصرًا من المخطوط بحذف امور اكثرها مما لا يدخل في علم الجغرافيا ولو لم يخلُ من فائدة . وايضاحاً لذلك نذكر فقرة من كل منهما وقد اختصرنا ما نقلناهُ عن كتاب الادريسي حيث ترى النقط

من كتاب الادريسي

" والسرين حصن حصين حسن موضعهُ كثيرة مياههُ ولواليهِ وجابيهِ شيءٌ معلوم ورسم ملزوم على المراكب الصاعدة والنازلة من اليمن بالبحار والمتاع والدقيق وجباياتهُ المحصلة يصل نصفها الى صاحب تهامة ونصفها الثاني الى صاحب مكة الهاشمي وكذلك من السرين الى مرمى السفينة ثلث مراحل وهي قرية عامرة وبها مستراح للمراكب ومنها الى جدة على الساحل ثلث مراحل وهي فرضة لاهل مكة وبينهما اربعون ميلاً . وجدة مدينة عامرة تجارتها كثيرة واهلها مياسير ذوو اموال واسعة واحوال حسنة ومواعُ (؟) ظاهرة ولها موسم قبل وقت الحج مشهود في البركة تنفق فيهِ البضائع المجلوبة والامتعة المستجبة والذخائر النفيسة وليس بعد مكة مدينة من مدن الحجاز اكثر من اهلها مالاً ولا احسن منهم حالاً وبها والٍ من ناحية الهاشمي صاحب مكة يقبض صدقاتها ولوازمها ومكوسها ويحرس عمالتها ولها مراكب كثيرة تتصرف الى حالات كبيرة وبها مصايد للسمك الكبير والبقول بها ممكنة .... ومدينة مكة قديمة ازلية البناء مشهورة البناء معمورة مقصودة من جميع الارض الاسلامية واليها حجهم المعروف وهي مدينة

من المختصر

" والسرين حصن حصين وكذلك من السرين الى حرس السفينة ثلثة مراحل وهي قرية عامرة وبها مستراح للمراكب ومنها الى جدة على الساحل ثلث مراحل وهي فرضة لاهل مكة وبينهما اربعون ميلاً ومن مكة الى المدينة التي تسمَّى يثرب على طريق الجادة نحو عشر مراحل (وذكر هنا الطرق بين مكة والمدينة بالاسهاب وذكر ما لا ذكر لهُ في كتاب الادريسي هنا ثم قال) وحولها (اي حول المدينة) نخل وتمرها حسن ومنهُ يتقوتون في معايشهم وليس لهم زرع ولاضرع وشرب اهلها من نهر صغير يأتي اليها من جهة المشرق جلبهُ عمر بن الخطاب "

بين شعاب الجبال وطولها من المعلاة الى المستفلة نحو ميلين وهو من جهة الجنوب الى جهة الشمال ومن اسفل جبل اجناد الى ظهر جبل قعيقعان ميل والمدينة مبنيَّة في وسط هذا الفضاء .... وفي وسط مكة مسجدها الجامع المسمَّى الحرم وليس لهذا الجامع سقف وانما هو دائرة كالحصيرة . والكعبة وهو البيت المسقف في وسط الحرم . وهذا البيت طولهُ من خارجهِ من ناحية المشرق اربعة وعشرون ذراعًا وكذلك طول الشقة التي يقابلها من جهة الغرب و ..... الخ "

وقال في الكلام على المدينة

"والمدينة يثرب في مستوى من الارض حارة سبخة كان عليها سور قديم وبخارجها خندق محفور وهي الآن في حين تأليفنا لهذا الكتاب عليها سور حصين منيع من التراب بناهُ قسيم الدولة المغربي .... واهلها فقراء قليلو المال لا صنع لهم ولا ضياع عندهم وحولها نخل كثير وتمرها حسن ومنهُ يتقوتون في معايشهم ولا لهم زرع ولا ضرع وشرب اهلها من نهر صغير يأتي اليها من جهة المشرق جلبهُ عمر بن الخطاب " ..

ولم يذكر مدفن النبي ولا اشار اليهِ

وظاهر من ذلك ان الفرق بين الاصل والمختصر كبير جدًّا. وقد قال حضرة محرر المشرق في جوابهِ الاول ان المختصر طُبع على صورتين الاولى لم يذكر فيها محل طبعهِ والسنة التي طبع فيها والثانية ذكر فيها العنوان اللاتيني واسم المطبعة وسنة الطبع . وعليهِ فالمرجح ان النسخة التي عندكم هي من الصورة الاولى والنسخة التي في المكتبة الخديوية من الصورة الثانية

ولا نعلم كيف استدللتم على ان المختصر مسيحي ولكن يظهر لنا من كلامهِ على بيت المقدس ان استدلالكم وجيه فقد نعت قبر المسيح بالمقبرة المقدسة واستعمل بعض التعابير الدينية المسيحيَّة . ولسوء الحظ لم نستطع ان نقابل ذلك بما ذكرهُ الشريف الادريسي لان الجزء الذي في المكتبة الخديوية ينتهي في الاقليم الثاني والكلام عن بيت المقدس في

الاقليم الثالث . ويحتمل ان يكون الطابع للمختصَر قد زاد هذه النعوت

ويتضح مما تقدَّم اولاً ان النسخة التي عندكم تشبه النسخة المطبوعة التي في المكتبة الخديويَّة ولكنها تخالفها في ذكر العنوان . ثانياً انها مختصرة من جغرافية الشريف الادريسي ولكنها ليست لهُ فانتم مصيبون في استنتاجكم . وثالثاً ان المختصِر مسيحي على الراجح كما استنتجتم

ولم يذكر في نسخة المكتبة الخديويَّة اسم المختصِر كما لم يذكر في نسختكم ولم نعثر على اسمهِ في ما عندنا من المظان

ثم اننا وجدنا في سكلوبيديا تشمبرس الانكليزية ان المختصَر طُبع في كسروان من اعمال لبنان بحروف كرشونية وذلك سنة ١٥٩٧ فلعلَّ اسم المختصِر ذكر في هذه الطبعة وعساكم تعثرون على نسخة منها

والخلاصة ان ما ذكرتموهُ عن جغرافية الشريف الادريسي صحيح وان المختصَر لرجل آخر غيرهُ كما قلتم وان هذا المختصر طبع على صورتين كما قال محرر المشرق وعلى احدى الصورتين تاريخ الطبع وهو سنة ١٥٩٢ ومكان الطبع وهو رومية والصورة الاخرى غفل من ذلك ولا نعلم اسم المختصر والمرجح انهُ مسيحي واذا وقعت لكم نسخة من الطبعة المطبوعة في كسروان فمن المحتمل ان تجدوا فيها اسمهُ

* * *

باب المراسلة والمناظرة

عبرة وذكرى

استاذيَّ الفاضلين

قضى والدي نحبهُ منذ سنة واحد عشر شهرًا ولهُ من العمر اربع وخمسون سنة وكان يدخن من التبغ كل يوم اربعة دراهم فقط ويتعاطى من الافيون كل يوم بقدر القمحة في الصباح ومثلها في المساء . فسألتهُ يوماً هل يمكن ان يبطل الدخان فقال لي لا يمكنني ذلك لاني اشربهُ منذ اكثر من ثلاثين سنة وكنت اشرب منهُ في اليوم الواحد اكثر من اوقية فولَّد عندي داء البلغم حتى منعني النوم فاستشرت طبيباً فاشار عليَّ بابطالهِ واذا لم يكن ابطالهُ بالمرة فاخفف من شربهِ فبلغ بي التدريج في التخفيف من شربهِ الى ان صرت اشرب منهُ اربعة دراهم كل يوم كما ترى . فبينما كنت اسرح الطرف في رياض المقتطف اذ وقع

نظري على نبذة في مضار التدخين فدفعتها اليهِ وقلت لهُ طالع هذه النبذة فطالعها بامعان ولما انتهى من مطالعتها قال لي ان شاء الله سأجتهد في ابطالهِ . فبعد ان كان يشرب اربعة دراهم في اليوم صار يشربها في يومين وهكذا الى ان ابطلهُ تماماً. ثم قلت لهُ كيف ترى صحتك الآن فقال لي احسن منها قبل فجزا الله المقتطف ومنشئيهِ عني خيرًا . وبعد مدة اطلعتهُ على نبذة في مضار الافيون فطالعها وقال لي اني أُصبت منذ عشرين سنة بمرض عضال اعيا الاطباء فوصف لي احد الاصحاب الافيون فقلت لهُ ان الطبيب لا يرضى بذلك فقال لي خذهُ بدون اطلاع الطبيب ولا تخبرهُ بذلك فطاوعتهُ على ما امر وقام في نفسي ان من ضمن الاسباب التي ساعدت على شفائي الافيون فصرت اتعاطاهُ على هذه الصورة الى الآن ولكنني ساشرع في ابطالهِ دفعة واحدة

واول يوم ابطل الافيون حصل لهُ اسهال بسيط فلما مرَّ اليوم الثاني وما بعدهُ ازداد الاسهال واخذت قوتهُ في الاضمحلال . على انهُ كثيرًا ماكانت تأتيهِ هذه الحالة ولكن بصفة ابسط من ذلك. فسألتهُ هل يرغب في اخذ شيء منهُ ثانياً فاجاب كلا. واخذ جسمهُ في الانحلال فاستحضرت لهُ بعض الاطباء فوصف لهُ الادوية اللازمة فلم تنجع وتوفي بعد مضي ستة اشهر من تاريخ هذه الحادثة . على انني لو أُعطيت حريتي لطلبت تشريحهُ لمعرفة ما تفعلهُ هذه السموم القاتلة في جسم الانسان . ولكن ما قدر كان

مصر في ١٢ سبتمبر سنة ١٩٠٨ احد المشتركين ح . ا

كتاب المصابيح

حضرة صاحب "المقتطف" الاغر

بمناسبة خبر كتاب المصابيح للبغوي الذي ادرجتم خبرهُ وكتبتم عنهُ في المقتطف (المجلد ٣٣ ص ٤٥٤) بادرت الى كتابة هذه السطور. وهو ان عندي ايضاً نسخة من مصابيح البغوي وهي وان لم تكن اقدم من نسختكم لكنها من الآثار القديمة النادرة مكتوبة من اولها الى آخرها بقلمٍ واحد وبمداد واحد ليس في سطورها ولا في رسوم كلماتها واشكالها تفاوت اصلاً

والكتاب على قطع كبير في ٣٠٧ صفحات في كل صفحة منها سبعة عشر سطرًا واكثر كلماتهِ مشكولة وبين اسطرهِ وحواشيهِ شروح كثيرة بخطوط مختلفة بحيث لا يوجد في حواشيها واطرافها موضع خالٍ من الكتابة . وورق الكتاب من نوع واحد متقن جدًّا مكتوب على آخرهِ هكذا :

"تم الكتاب بحمد الله ومنهِ بعون الله وحسن توفيق الملك الفتاح الكبير وفرغت يد معلقهِ الضعيف الفقير النحيف المسيء المذنب الراجي عفو ربهِ الخبير وكرم المولى البصير وهو على ما يشاء قدير ايوب بن يعقوب الاكبر مَن احسن الله اليهِ واليهما من شهر المبارك اواسط شهر ربيع الآخر في يوم الاحد في بلدة بروسا حرسها الله تعالى من جميع آفاتهِ مع بلاد المؤمنين لسنة اربع وسبعين وسبعمائة من هجرة النبي صلى الله عليهِ وسلم حامدًا لله ومصليًا على نبيهِ محمد وآلهِ وصحبهِ اجمعين رحم الله امرءًا نظر فيهِ وقرأ ودعا لكاتبهِ المذنب آمين يا رب العالمين" . وبعدهُ مكتوب بخط آخر هكذا :

"قابلتهُ وصححتهُ ثالثًا مع الاصل مرتين في بلدة دمشق غفر الله ذنوبهُ وذنوب المسلمين الناظرين"

ولعل المراد من قولهِ الاصل هو نسخة المصنف نفسها والله اعلم

بلدة "اورنبورغ" في الروسيَّة رضاء الدين بن فخر الدين

ما الذي اتى بهِ دارون

حضرات اصحاب المقطم

قلما تفتح كتابًا من كتب الافرنج الباحثة في العلوم الطبيعية الاَّ وتجدهم ينوهون فيهِ بمذهب النشوء الذي قال بهِ دارون ظنًا منهم ان دارون هو اول من ابتدعهُ . على ان هذا المذهب ليس من مبتدعات دارون ولا رسل ولا غيرهما بل هو من مبتدعات العرب وقد كانوا يدرسونهُ في مدارسهم كما يظهر من اقوال فيلسوف كبير من فلاسفتهم وهو ابن مسكويه المتوفى في آخر القرن الرابع الهجري حيث قال

" اول ما يرقى النبات من منزلتهِ الاخيرة ويتميز بهِ من مراتبهِ الاول هو ان ينقلع من الارض ولا يحتاج الى اثبات العروق فيها بما يحصل لهُ من التصرف بالحركة الاختيارية وهذه الرتبة الاولى من الحيوانية ضعيفة لضعف اثر الحس فيها وانما تظهر بجهة واحدة اعني حسًا واحدًا وهو الحس العام الذي يقال لهُ حس اللمس وذلك كالصدف وانواع الحلزون الذي يوجد في شاطىء الانهار وسواحل البحار وانما تعرف حيوانيتهُ ويعلم انهُ ذو حس واحد من اجل انهُ اذا استلب من موضعهِ بسرعة وعلى عجلة وخفة فارق موضعهُ واستجاب للاخذ وان أُخذ بابطاء وعلى ترتيب لزم موضعهُ وتمسك بهِ وذلك لانهُ يحس ان لامسًا يريد اخذهُ فيصعب حينئذٍ جذبهُ وتناولهُ من مكانهِ لتشبثهِ بهِ وهو يضعف عن التنقل وان كان قد

انقلع من الارض وصارت لهُ حياة ما لانهُ في الافق القريب من النبات وفيهِ مناسبة منهُ . ثم ينتقل عن هذه الرتبة الى ان ينتقل ويتحرك وتقوى فيهِ قوة الحس كالدود وكثير من الفراش والدبيب ثم يرتقي عن هذه المرتبة ايضاً ويقوى اثر النفس الى ان يصير منهُ الحيوان الذي لهُ اربعة حواس كالخلد وما اشبه . ثم يرتقي من ذلك الى ان يصير لهُ من حس البصر ضعيف كالنمل والنحل والحيوان الذي عيونهُ تشبه الخرز وليس لها اجفان ولا ما يستر احداقها ثم يقوى ذلك الى ان يصير منهُ الحيوان الكامل في الحواس الخمس وهي مع ذلك متفاوتة المراتب فمنها البليدة الجافية الحواس ومنها الزكية اللطيفة الحواس التي تستجيب للتأديب وتقبل الامر والنهي وتستعد لقبول اثر النطق والتمييز كالفرس من البهائم والبازي من الطير . ثم يقرب من آخر مرتبة البهائم ويصير في افقهِ الاعلي وفي مرتبة الانسان وهذه المرتبة وان كانت شريفة فهي خسيسة دنية بعيدة عن مرتبة الانسان وهي مراتب القرود واشباهها من الحيوان التي قاربت الانسان في خلقتهِ الانسانية وليس بينها وبينهُ الاَّ اليسير الذي ان تجاوزهُ صار انساناً فاذا بلغهُ انتصبت قامتهُ ويظهر فيهِ من قوة تمييز الشيء اليسير فضل تمييز واهتداء الى المعارف ويقوى فيه اثر النفس ويقبل التأديب بالفهم والتمييز ”

فترون من ذلك ان هذا الكلام مثل كلام فلاسفة القرن العشرين من هذا القبيل واعم منهُ فهل منا معشر الشرقيين من رجل يرفع عقيرتهُ امام الغربيين ويريهم ان رأي النشوء ليس من آراء فلاسفتهم ولا من مميزات جيلهم وانما هو رأي العرب ايام كانت دولتهم هي الدولة وصولتهم هي الصولة حين كانت الفلسفة في عصورها الذهبية

علي سيد يوسف

[المقتطف] ليس المراد بمذهب دارون القول بان انواع الحيوانات والنباتات مرتقٍ بعضها من بعض لان هذا قال بهِ كثيرون قبل دارون من ايام اليونان والرومان بل المراد بمذهب دارون ان هذا الارتقاء حدث بقوة طبيعية تدريجية وهي الانتخاب الطبيعي والجنسي واقامة الادلة القوية على ذلك . ولا يزال جمهور من العلماء والفلاسفة يخالفون دارون في ذلك فبعضهم يقول ان هذا الارتقاء حدث بالانتخاب الفسيولوجي وبعضهم يقول انهُ لم يحدث بقوة طبيعية بل بقوة الهية فلا سبيل للبحث فيها . فهل تظنون ان ابن مسكويه كان يقول ان كل انواع النبات والحيوان تولَّدت بقوة طبيعية لا الهية فان كان الامر كذلك فقد سبق دارون الى هذا القول ويبقى ان تذكروا هذه القوة والادلة التي اقامها على ان هذا التولُّد حدث بها لان دارون لم يكتف بالقول بل حاول تأييد قولهِ بالامتحان والمشاهدة مدة سنين كثيرة

وجمع مما شاهدهُ وامتحنهُ بنفسهِ ومما شاهدهُ وامتحنهُ غيرهُ ما لو ترجم الى العربية لملأ عشرة مجلدات مثل مجلدات المقتطف فهل فعل ابن مسكويه مثل ذلك

ان نسبة ما فعلهُ ابن مسكويه وكل فلاسفة العرب والعجم والهند واليونان والرومان من حيث مذهب النشوء الى ما فعلهُ دارون كنسبة القارب الصغير الذي يصنع الآن في بلاد الفلاحين ويسع رجلين او ثلاثة الى السفينة البخارية التي تقطع الاوقيانوس بعشرة آلاف راكب وفيها من الآلات البخارية ما قوتهُ قوة اربعين الف حصان . او كنسبة العربية التي يجرها حمار الى قطار سكة الحديد . او كنسبة عزبة صغيرة مبنية بالطوب الى مدينة كبيرة مثل القاهرة او باريس او لندن

واذا اردنا ان نباهي باسلافنا فالمباهاة ليست هنا بل في المبادىء الاخلاقية والفلسفية التي وضعوها او اهتدوا اليها فانها قد تفوق المبادىء التي وضعها علماء اوربا وفلاسفتها وكذلك يمكن المباهاة بهم في كثير من الامور الادبية والصناعية التي كادوا يبلغون بها حدَّ الكمال

باب الزراعة

الزراعة المصرية

في عهد الاحتلال الفرنسوي

ادوات الزراعة — معيشة الفلاح — واحوال البلاد

في هذا الزمن (اي في آخر القرن الثامن عشر) لا تزال ادوات الزراعة واخصها المحراث والنورج والمقحفة (المسوحة) والمنجل والرفش والمذراة على ما كانت عليهِ منذ القدم فلم ينبغ من حسَّن فيها او اضاف اليها شيئاً بل بالعكس قد يستغني عن استعمال بعضها كما يشاهد ذلك في ادفو حيث يستغنى عن استعمال النورج ويكتفى ببسط ما يراد درسهُ على الجرن وتستخدم الثيران لدوسهِ الى ان يتكسر دقيقاً وتتناثر الحبوب من سنابلها . وفي معظم جهات القطر المصري يستخرجون الحبوب مما لا يصلح قشهُ علفاً بدقهِ بالنبابيت الى ان تتناثر الحبوب منهُ وهي ابسط عملية تعمل بالفطرة

واكثر ما يستخدم من البهائم في الزراعة الثيران وقد يستخدمون الاناث للحرث ويندر استخدام الحمير والجمال لذلك

ومن تأمل حالة الفلاح يرَ تمام المشابهة بين سذاجة معيشتهِ وبساطة اعمالهِ . فانهُ يشتغل من طلوع الشمس الى غروبها ويعيش على الذرة والبصل والخيار والقثاء والجبن والفول والعدس الخ فيأكل في اليوم مرتين احداهما في الساعة الحادية عشرة صباحاً والاخرى في المساء وقلما يأكل اللحم الاَّ في شهر رمضان فيأكل شيئاً من لحم الماعز او لحم الجاموس مسلوقاً

وتختلف اجرة العامل في الزراعة باختلاف الاماكن فهي في الصعيد غرش او اقل يومياً وتتراوح في مديرية الفيوم وضواحي القاهرة والوجه البحري بين غرش وغرشين

وتقدر نفقة مأكل الفلاح في الوجه القبلي بنحو ثلث غرش في اليوم

وهو لا يلبس الاَّ جبة سمراء محوكة من صوف الغنم البلدي وشالاً يضعهُ على كتفيهِ وعمة يستعملها نحو ثلاث سنين ونصف سنة فتبلغ نفقة ملابسهِ سنوياً ١٨ فرنكاً ونفقة مأكلهِ ٣٥ فرنكاً · ويضاف الى ذلك نفقات شتى تقدر باثني عشر فرنكاً فيكون مجموع ما ينفقهُ الفلاح الصعيدي سنوياً نحو ٦٥ فرنكاً · وتزيد عن ذلك قليلاً نفقات الفلاح في الوجه البحري

هذه هي حالة الفلاح فيما يختص بمعيشتهِ واعمالهِ · فيرى منها بُعدهُ عن التمتع بالراحة او التمكن من تحسين حالة الزراعة ولا سيما ان معظم المزارعين ليسوا مالكين بل مستاجرين وان المماليك كانوا يضربون الضرائب الباهظة على الاراضي ليتمتعوا بحاضرهم لعلمهم ان البلاد ليست لهم فلا يهمهم امر تحسينها · وفضلاً عن ذلك كانوا قوماً همجاً على جانب عظيم من الجهل فاستأصلوا بجهلهم كل نظام يعود بالاصلاح

ومع كل هذا الانحطاط كانت البلاد بين اسيوط وقنا تتحسن في اواسط القرن الثامن عشر لخروجها في ذلك الوقت عن حكم المماليك

ويقطن في اماكن مختلفة على جانبي النيل اقوام رحلت اليها من اليمن وقبائل انتها من شمال افريقيا فبقي بعضها على بداوتهِ يرعى المواشي وتحضَّر البعض الآخر واحترف الزراعة

وكان منذ نحو ٢٥٠ سنة ان قدمت من ضواحي تونس قبيلة تدعى الهواري واحتلت ما بين جرجا وفرشوط واخذت تعمر الاراضي المقفرة وتغتصب القرى العامرة الى ان استتب لها امتلاك كل البلاد ما بين هو وقرية الشيخ سليم واثرت فعلت كلمتها وامتدت سطوتها

تحت امرة شيخها الذي كان يقيم في فرشوط . وآخر من قاد هذه القبيلة شيخ اسمهُ همام حكم الصعيد من اسيوط الى اصوان وكان يستولي على ريعهِ فيبلغ سنويًا بنحو ١٥٠٠٠٠ اردب حنطة يدفعها لباشوات مصر وبكواتها . وكانت سلطتهُ تتعاظم بتعاظم الشقاق بين المماليك واخيرًا جرد عليهِ علي بك جيشاً عظيماً يقودهُ محمد ابو الذهب فالتقاهُ همام بخمسة وثلاثين الف فارس ولكنهُ هزم عند اسيوط وفرّ الى اسنا حيث مات في سنة ١٧٩٦ وصادرت الحكومة املاكهُ . وقد انفقت الالسن على امتداح هذا الشيخ وما بذلهُ من العناية بالجسور وحفظ الامن بواسطة خفر انشأهُ في البلاد

وبعد موتهِ صار الصعيد ملجئاً للبكوات الفارين فاستفادوا من استخدام الخفر الذي لم يكن لهُ مثيل في المديريات الاخرى . وكانت مطامعهم في العودة الى الحكم على القاهرة تقوي نهمهم في ابتزاز ثروة البلاد فبهظوها بالضرائب الفادحة وزادوا زراعتها انحطاطاً وظلوا على ذلك الى ان استولى الفرنسويون على مصر

اما قبائل العرب التي احتلت ضفتي بحر يوسف والعطفية على شاطىء النيل المقابل فنزعت الى الزراعة ولكنها لم تنزع عنها عاداتها الموروثة من الغزو والقتال . فكانت احياناً تحارب واحياناً تسطو على القرى المجاورة فتضطر اهلها إما لمهاجرتها واما لفداء انفسهم وكان موقف الفلاحين حرجاً اذ يرون انفسهم بين قبائل متعادية عرضة للنهب والسلب فيلتزمون ان يدفعوا جانباً كبيرًا من الضرائب عن القبائل التي تتكفل بحمايتهم من العربان جيرانهم ومن القبائل الرحل التي كانت تجتاح اكثر انحاء الفيوم . وآل الامر الى ضعف الفلاح ورهبتهِ حتى لقد كان ينظر الى هؤلاء الاعراب نظر المستأجر الضعيف الى المالك القوي

وعلت سطوة البدو في جميع اطراف القطر المصري ما خلا الاماكن القريبة من المدن الكبرى حيث قوة الحكومة على اشدها ففي الوجه البحري ولا سيما عند اطراف صحاري برزخ السويس وجوانب بحيرة مريوط القديمة كانت فرسانهم تجتاز النيل لاقل داع فتدخل البلاد خلسة وتنهب القرى المجاورة

هذه كانت حالة البلاد لذلك العهد اعراب تغزو وحكام تلهو وفلاح يشقى وارض بالدماء تسقى

الري في العراق

لقد كانت فاتحة اعمال الحكومة العثمانيَّة الحاضرة ان اهتمت بمصادر ثروة البلاد وباغزر هذه المصادر بل المصدر الحقيقي المنتج وهو الزراعة . وكأَنها نظرت الى نجاح القطر المصري الذي خرج من الافلاس الى السعة باصلاح الري فارادت ان تقتدي بهِ ولذلك استدعت مهندس الري صاحب المشروعات الكبيرة السر وليم ولككس ليتولَّى ادارة الري في البلاد العثمانية ولاسيما في العراق العربي

ولم يخطر على بال السر وليم ولككس لما انتبه الى ري العراق منذ خمس سنوات وكتب فيهِ ما كتب مما عربناهُ ونشرناهُ في المقتطف انهُ يرى في حياتهِ تحقيق امانيهِ ولا خطر ذلك على بال احد بل لقد قلنا لهُ ان المشروع حسن لذاتهِ ولكن اين الامان على حياة العمال ومَن يكفل للفلاح هناك ان يتمتَّع بثمرة تعبهِ ونحن نرى الناس يتركون اراضيهم بورًا هربًا من جور الملتزمين والحكام ولكن التغيير الكبير الذي حدث في الحكومة العثمانيَّة يوم اعلان الدستور قد ازال كل العقبات من سبيل هذا المشروع فاستدعي صاحبهُ حالاً لتحقيقهِ ولم يبقَ الاَّ ان تصادق الحضرة السلطانية عليهِ

وقد رأَينا ان نعيد الآن نشر خلاصة الخطبة الاولى التي القاها السر وليم ولككس في هذا الموضوع وقد نشرناها حينئذٍ في جزء مايو سنة ١٩٠٣ وهذا نصها

انتفض بابل واشور عنهما غبار العصور الغابرة . ويعود الى بغداد عصر الرشيد والمأْمون ويرتع الامن في ربوع العراق وتفيض الخيرات من دجلة والفرات . كل ذلك محتمل وقد صار على قاب قوسين بعد ان اعتمدت الدول الاوربية على مد سكة الحديد الى بحر فارس. ولكن كم يبقى للسكان من خيرات بلادهم بعد ان تتمكن فيها اقدام الاوربيين وتعطى لهم الاراضي الواسعة مع الامتياز وكيف يجاري ابناء المشرق الذين ضعفت هممهم من طول ما لقوا من الذل والامتهان ابناء المغرب الذين نشطوا للعمل منذ مئتي عام وهم لا يرون غير مثيرات النخوة ومقويات العزائم حتى من ملوكهم وامرائهم . هذه مسأَلة يصعب النظر فيها من الآن

أَما تلك البلاد فكانت مهد العمران وخصبها الطبيعي مما لا يختلف فيهِ اثنان وقد كان ريها منتظمًا في العصور الغابرة انتظامًا لا يفوقهُ انتظام الري في القطر المصري الآن . ومن رأْي السر وليم ولككس المهندس المشهور في هذا القطر انهُ يسهل اعادتها الى ما كانت عليهِ

فتصير مثل القطر المصري من حيث سهولة الري والصرف وتدفق الخيرات . وقد انشأ خطبة مسهبة في ذلك تلاها في الجمعية الجغرافية فلخصنا منها ما يلي لعلهُ يكون محرضاً لابناء الشام والعراق على ترك المهاجرة الى البلدان القاصية وانتظار ما يمكن عملهُ في بلادهم . قال مامفادهُ

ان مدينة بغداد تعلو عن سطح البحر (بحر فارس) ٦٦ متراً وتبعد عنهُ ٥٥٠ كيلو متراً على خط مستقيم او ٨٠٠ كيلو متر اذا قيس البعد على مسير دجلة . وحولها الآن قفار قاحلة ولكنها كانت في سالف الزمن تاج ما تمتلكهُ الدول التي دان لها المشرق . هذا كان شأن البلاد على مئة ميل حول بغداد من كل ناحية

اذا نزلت في دجلة من الشمال الى الجنوب تصل اولاً الى دورا مأخذ ترعة نهروان والسهل الذي نصب فيهِ نبوخذ نصر التمثال الذهبي ولعلهُ نصبهُ تذكاراً لتجديد هذه الترعة . ثم تل البج حيث مات الامبراطور يوليانوس من جراحهِ حينما أُخرج الرومانيون من تلك الاقطار واستولى عليها ملوك الفرس فدان لهم المشرق كلهُ . ثم تصل الى اوفيس التي كان فيها اغنى اسواق المشرق التجارية ومنها الى بغداد عاصمة الخلفاء العباسيين . فالمدائن عاصمة آل ساسان ملوك الفرس فسلوقية عاصمة المكدونيين في المشرق واخيراً تصل الى بابل سيدة المدائن وهي على الفرات لا على دجلة

والبلاد بين ترعة نهروان وبين دجلة شرقاً وغرباً عجزت قبائل العرب عن العيث فيها فظلت اخصب بلدان المشرق وكأن ملوك الكلدان انشأُوا تلك الترعة وغيرها من الترع لكي يمنعوا الغزاة عن بلادهم كما فعل مينا ملك مصر لما حوّل مجرى النيل الى الجهة الشرقية امام منف لكي يكون فاصلاً بينها وبين القبائل التي كانت تغزو بلادهُ آتية من بلاد العرب

ويقع المطر في تلك البلاد لكنهُ قليل جداً لا يكفي للزراعة . يقع في السنة من اربعة سنتيمترات الى ٢٤ سنتمتراً لا غير فلا بدَّ من ري الارض من الانهار والترع اذا اريد ان تزرع شيئاً

ودجلة من بغداد الى بحر فارس قليل التحدُّر لا يزيد تحدُّرهُ على $\frac{١}{١٣٠٠٠}$ فهو مثل النيل من هذا القبيل ويفرق عنهُ في ان الدلتا التي يرسب فيها طمي دجلة بعيدة عن مصبهِ وليست مثل الدلتا التي بين فرعي النيل

ويبتدئ دجلة من الآكام التي الى الجنوب الغربي من بحيرة وان ويمر من عند مدينة نينوى القديمة ويقطع تلالاً حجرية ويعمق مجراهُ حتى يصير نحو ٢٥ متراً وسرعتهُ مترين ونصف متر في الثانية من الزمان ثم يخرج منها ويدخل وادياً منبسطاً فتقل سرعتهُ وتصير

مترًا في الثانية وهناك يلقي ما كان يحملهُ من الطمي فتكوَّن منهُ سهل خصيب حول بغداد · وعلى ثمانين كيلو مترًا من بغداد جنوبًا تصير الرواسب التي ترسب منهُ ناعمة جدًّا مخلوطة بالملح وتستمرُّ على ذلك الى البحر فلا تصلح للزراعة مثل الاراضي التي حول بغداد · ويفيض كما يفيض النيل ويغمر الاراضي التي حولهُ من بغداد الى البحر ويصب فيهِ نهران من الجهة الشمالية الشرقية احدهما فوق بغداد والآخر تحتها ويتفرع من ثانيهما ترع كثيرة

ويبتدئ فيضان دجلة في اواخر فصل الشتاء حتى اذا اشتدَّ الحر واذاب الثلج عند مصادرهِ ومصادر نواصرهِ زاد فيضانهُ فصلح للري الصيفي مثل انهار الهند . وكلما زاد الحر شدةً وزادت حاجة المزروعات الى الماء زادت مياههُ فيضانًا

وفي رأس ذلتا دجلة خرائب مدينة اوفيس وهي مثل القاهرة في مصر ومنها تبتدئ الترع العظيمة التي تروي ذلتا العراق

وكان للري هناك سبيلان كبيران الواحد بترعة نهروان والثاني بترعة دجيل جنوبيهُ وكان الاقدمون قد اقاموا سدودًا في الاماكن العالية ترتفع بها المياه ويقال ان الاسكندر المكدوني خرب بعضها ليغزر الماء في دجلة ويسهل عليهِ ركوبهُ بسفنهِ ولا بدَّ من ان يكون بناها بعد ذلك

وترعة نهروان في العراق مثل احد الرياحات الكبيرة في القطر المصري طولها اربع مئة كيلو متر وقد بلغت اعلى درجة من الانتظام على عهد بني ساسان ملوك الفرس ثم على عهد هرون الرشيد · ولها مأخذان من دجلة حتى اذا ملأ الطمي احدهما ولزم تطهيرهُ جرى الماء اليها من المأخذ الثاني · وبُعد المأخذ الاول عن الثاني ستون كيلو مترًا وعند ملتقى المأخذين قنطرة موازنة اسمَّى القنطرة الكسروية وعند مأخذ الفرع الاعلى قنطرة اخرى للموازنة تسمَّى قنطرة الرصاص لان الرصاص مصبوب بين حجارتها وكذلك عند المأخذ الثاني قنطرة موازنة اخرى وهي الآن خراب

ثم اسهب في وصف الاعمال الهندسيَّة التي كانت على دجلة من ترع وقناطر وسدود وما اشبه لتسهيل الري وبيَّن ذلك كلهُ بالرسوم وقال في وصف ترعة نهروان ان ترع مصر لا تقابل بها لان اكبر ترعة في القطر المصري لا يزيد عمقها على عشرة امتار وعرضها على ستين مترًا واما ترعة نهروان فيبلغ عمقها احيانًا خمسة عشر مترًا واتساعها ١٢٠ مترًا · هذا من حيث نظام الري الاول واما نظام الري الثاني بترعة دجيل فمدارهُ على ترعة طولها مئة كيلو متر وعرضها خمسون مترًا

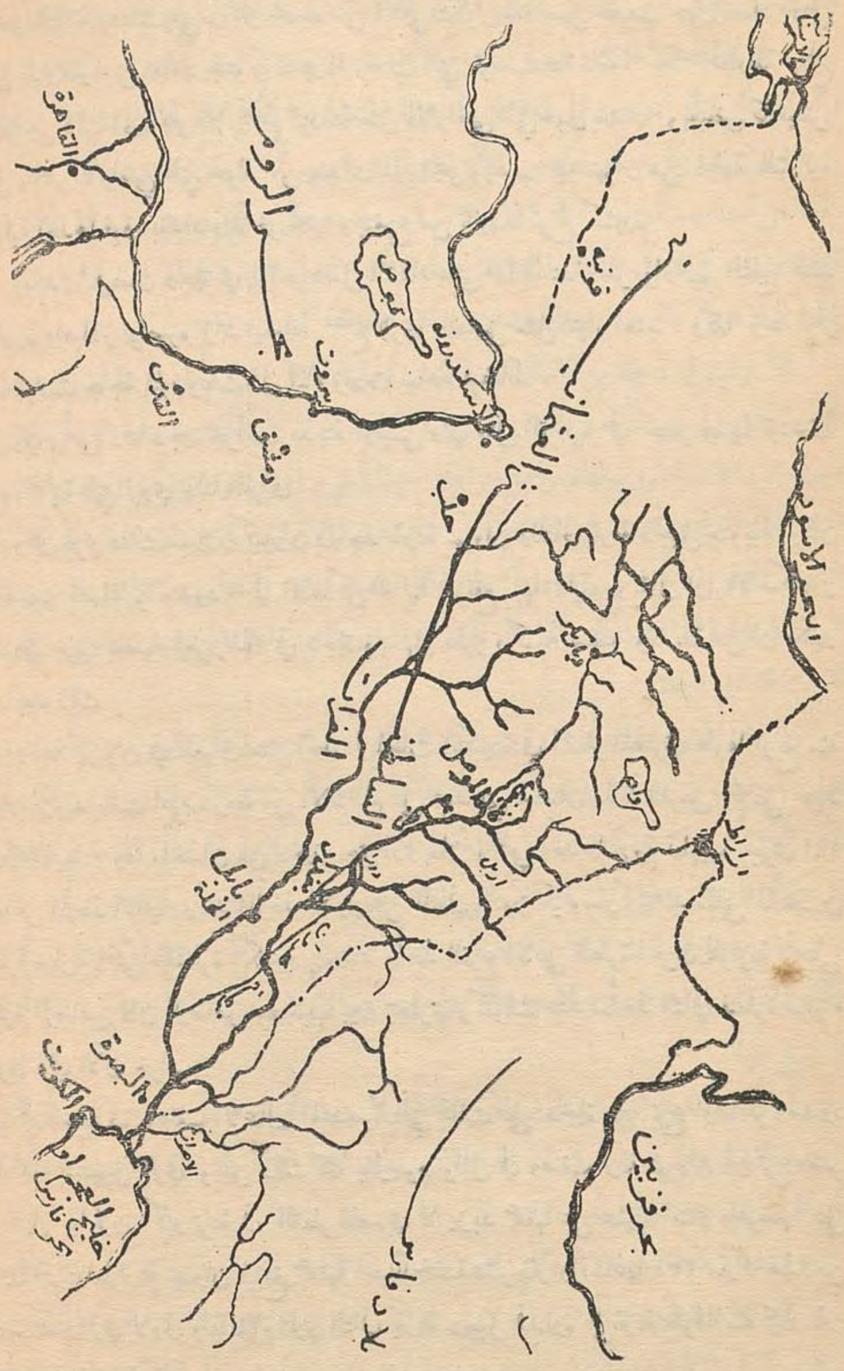
القاهرة
الروم
قبرص
الاسكندرونة
بيروت
القدس
دمشق
حلب
الفرات
دجلة
الموصل
بابل
البصرة
الكويت
خليج العجم او بحر فارس
بحر قزوين
البحر الاسود

خريطة بابل واشور

وبيَّن كيف خربت تلك البلاد وعفت آثار مدنها بطغيان دجلة على ترعتيهِ وتخريبهِ سدودهما وجرفهِ كل ما في البلاد من مدن وقرى ومزارع وانسان وحيوان فانتشر الخراب في بلاد طولها اربع مئة كيلو متر وعرضها ثلاثون كيلو متراً كانت اعمر بلدان المسكونة واكثرها سكاناً. وعندهُ ان تلك البلاد تعود الى مجدها السابق باصلاح ترعة نهروان واصلاح ري العراق بها. ثم شرح الاعمال الهندسيَّة اللازمة لذلك وقدَّر ما يلزم لها من النفقات وما ينتج عنها من الفوائد فقال ان النفقات تبلغ ثمانية ملايين من الجنيهات يصلح بها مليون و ٢٨٠ الف فدان من اجود الاراضي الزراعيَّة فيصير الفدان منها يساوي ٣٠ جنيهاً على الاقل فتساوي كلها ٣٨ مليون جنيه ولا يقلُّ صافي ريعها في السنة عن مليوني جنيه فيكون المال الذي ينفق على اصلاحها قد جاء بفائدة ٢٥ في المئة سنويًّا

هذا من حيث الارض العالية التي في بداءة ذلتا دجلة اما البطائح التي تحتها ولاسيما بين دجلة والفرات فهي قاحلة الآن ولكن الدلائل كثيرة على انها كانت تروى وتستغلُّ في قديم الزمان كما يظهر من آثار الترع والاعمال الهندسيَّة التي فيها. وهناك ارض مساحتها مليون ونصف مليون من الفدادين بين بغداد وبابل يمكن اعادة ريها وزرعها وقد تلفت منذ عهد طويل وصارت مستنقعات لان الترع التي فيها أُهملت لما تولَّى البلاد اناس لا يحسنون امرها فامتلات مجاريها طمياً وحشائش وتهدَّمت جسورها فلم تعُد تكفي لاحتواء ما يجري فيها من الماء ففاض على الارض التي حولها واغرقها فصارت مستنقعات وبطائح

وقابل تلك البلاد بالقطر المصري وقال ان مجرى النيل لم يمتلئ بالطمي مع ما مرَّ عليهِ من القرون لان ري الحياض كان من مقتضاهُ اجراء ماء الفيضان الى الحياض على جانبي النيل فيرسب ما فيهِ من الطمي ويعود اليهِ صافياً ولكن اذا بطل ري الحياض في القطر المصري خشي ان يرسب الطمي كلهُ في مجرى النيل فلا يعود كافياً لاحتواء ماء الفيضان كلهِ فيطغي على البلاد ويغرقها وحثَّ على الانتباه لذلك من الآن. ثم عاد الى ري العراق فقال ان نجاح مصر ابتدأ يوم صمم مهندسو الملك مينا اول الفراعنة على اعلاء جسر النيل الغربي وترك الجانب الشرقي من غير جسر حتى يمتنع طغيانهُ على الجانب الغربي فيصلح للزراعة ومثل ذلك يمكن ان يفعل في العراق فيقام جسر لدجلة على الضفَّة الغربيَّة وجسر للفرات على الضفة الشرقية ويمد جسر الفرات الى ما تحت بابل وجسر دجلة الى عند منعطفهِ. وتصلح الارض التي بين هذين النهرين وتفتح فيها الترع وتزرع

وقد ثبت لي من اعمال الري في مصر ان كل النفقات اللازمة للسدود والترع والمصارف

وما اشبه تبلغ خمسة جنيهات ونصف جنيه عن كل فدان والنفقات اللازمة لهُ من تقصيب وتلويط وما اشبه تبلغ ثلاثة جنيهات ونصف جنيه والجملة ٩ جنيهات فيصير يساوي ثلاثين او اربعين جنيهاً وقد قدرنا ثمن فدان الارض على ترعة نهروان في بلاد العراق بخمسة وثلاثين جنيهاً بعد اصلاحهِ واصلاح ريهِ لان الفدان الذي مثلهُ في مصر يساوي الآن من مئتين جنيهاً الى مئة فنقدر الفدان الذي يصلح بين دجلة والفرات بخمسة عشر جنيهاً اي بنصف ما يساويهِ الفدان الذي مثلهُ في مصر وهناك مليون وخمس مئة الف فدان يمكن اصلاحها كذلك ينفق على اصلاحها وريها وصرفها ١٣ مليون جنيه فتصير تساوي ٢٢ مليون جنيه

وباضافة الاراضي التي في رأس دلتا دجلة الى البطائح التي تحتها تصير المساحة ٢٨٠٠٠٠٠ فدان والنفقات اللازمة لاحيائها ٢١ مليون جنيه فتصير تساوي ٦٠ مليون جنيه على الاقل

وفي دلتا الفرات ودجلة خمسة ملايين فدان اي قدر مساحة الاراضي الزراعيَّة في القطر المصري كلهِ واذا ابتدأ العمل في اصلاحها سهل جلب المال من اوربا لاتمامهِ فان الفدان في مصر يحمل من الدين عشرين جنيهاً ومع ذلك لا يجد الحمل ثقيلاً . ثم اذا مُدَّت سكة الحديد وكثرت فروعها في البلاد زاد السكان وزادت الخيرات وارتفع ثمن فدان الارض المصلحة في اعالي البلاد من ٣٥ جنيهاً الى ثمانين وفي اسافلها من ١٥ الى ٣٥

وختم خطبتهُ بكلام بليغ قال فيهِ

ان امامنا الآن إحياء بلاد قديمة كان اسمها مرادفاً للخصب والفلاح والعظمة مدة قرون كثيرة فقد كان هناك سهول خصبة ومدن عامرة وملوك اعزاء وقوَّاد اشداء ورجال حكماء تداولوها الوفاً من السنين كما تشهد كتب الاخبار ونقوش الآثار وهي لا تقل عن اخبار مصر وآثارها قدماً وصحة . وهناك ادلة كثيرة على غنى تلك البلاد وانها كانت مطمح انظار الفاتحين والتملك عليها غاية ما يفاخرون بهِ فان الدولة التي كانت تملك تلك البلاد في العصور الغابرة كانت تملك المشرق والدولة التي تفقدها تفقد المشرق . بلاد مثل هذه جديرة بان تحيا من مواتها . وان عرفنا السبب الذي اقفرها سهل علينا ان نعيد اليها خصبها السابق . والارض التي اجابت داعي العلم القديم فتدفقت منها خيرات كفت بلاط ملوك الفرس معما يؤْثر عنهم من الانغماس في الترف والملاذ لا بدَّ من ان تجيب داعي العلم الحديث وترد المال الذي ينفق عليها اضعافاً كثيرة . ولا بدَّ الآن من الاستعانة بمعارف الغرب على هذه الاعمال كما استعين سابقاً بمعارف الشرق . وقد كانت تلك البلاد تروى وتزرع بواسطة معارف حكماء الكلدان ومهندسيهم ومراقبي الاحداث الجوية منهم وصار احياؤُها وزرعها الآن اصعب

مما كان قبلاً ولكن علوم ابناء هذا العصر صارت ارقى من علوم الاقدمين ولا يصعب معها رد تلك البلاد الى سالف مجدها فتعود جنة الشرق كما كانت قبلاً و يقصدها الناس من مشارق الارض ومغاربها

وتسمى بغداد دار السلام وقلما وجدت السلام من حين بنيت الى الآن لما حلَّ بها من تيمورلنك وهولاكو وخلفائهما الذين اضروا بالبلاد اكثر مما اضرَّ بها تحول دجلة عن مجراهُ ولكنها ستجد السلام الذي أُضيفت اليهِ تيمنًا وستجتمع الوف وعشرات الالوف من العمال من الهند ومن مصر ايضًا يجتمعون في ذلتا دجلة يمدون سكة الحديد من الكويت الى الشمال ويفتحون ترعة من اوفيس الى الجنوب

وستشرع السكة الحديد بنقل العمال والادوات من خليج العجم لحفر الترع واحياء الموات وانشاء المدن ولا يتم مدها واتصالها باسيا الصغرى حتى يكون جانب كبير من الارض قد أُصلح وكثرت خيراتهُ لتنقلها السكة شرقًا وغربًا . وليس على وجه البسيطة ارض اصلح من اراضي دجلة لزرع الحبوب ولقد سمعت الدكتور شوينفرث رئيس هذه الجمعية السابق يقول فيها ان من هناك اصل القمح وانهُ كان ينبت بريًّا في تلك البطاح ومنها نقل الى اربعة اقطار المسكونة ويخصب هناك القطن والذرة وقصب السكر وكل الحاصلات المصرية التي تنبت صيفًا. وهناك وطن المزروعات الشتوية كالحبوب والقطاني والبرسيم والافيون والتبغ وليست بي حاجة الى الكلام على فراديس بابل وبغداد القديمة . والارض التي اقليمها يزكي المزروعات زكاءها في الاقاليم الحارة وانهارها تسقى من ثلج الجبال فتروي ملايين الفدادين وقت اشتداد الحر والظما لا يعقل انها تبقى قفرًا قاحلاً بعد ان تخرقها سكة الحديد وتسعى عاصمتها بغداد وراء موارد الثروة. ولا بدَّ من ربح وافر لتلك الطريق مما تنقلهُ من بضائع الشرق والغرب ولكن اذا عاد الى البلاد سابق خصبها وتدفقت منها الخيرات زاد ربحها ربحًا وتحققت فيها آمال الذين انشأُوها وخالج نفوسهم احياء البلاد لما اشاروا بها

انتهى كلام السر وليم ولككس ملخصًا وقد الحق خطبتهُ برسوم كثيرة نقلنا واحدًا منها لكي يتضح للقارىء مواقع الاماكن التي ذكرها واضفنا اليهِ اسماء اماكن أُخرى اتمامًا للفائدة

باب المسائل

فتحنا هذا الباب منذ اوّل انشاء المقتطف ووعدنا ان نجيب فيهِ مسائل المشتركين التي لا تخرج عن دائرة بحث المقتطف . ويشترط على السائل (١) ان يمضي مسائلهُ باسمهِ والقابهِ ومحل اقامتهِ امضاءً واضحًا (٢) اذا لم يرد السائل التصريح باسمهِ عند ادراج سؤالهِ فليذكر ذلك لنا ويعين حروفًا تدرج مكان اسمهِ (٣) اذا لم ندرج السؤال بعد شهرين من ارسالهِ الينا فليكررهُ سائلهُ فان لم ندرجهُ بعد شهر آخر نكون قد اهملناهُ لسببٍ كافٍ

(١) حقيقة السحر

البني جيورجيا باميركا . الخواجه الياس نعوم . هل في الساحر قوة فائقة الطبيعة يفعل بها الاعمال التي تنسب الى السحرة واليكم مثالاً من ذلك

وقع شابٌّ في هوى ابنة شريفة واذ لم يتوقَّع واسطة للوصول اليها دفعهُ الغرام لاستخدام السحر فذهب الى انسان مشهور بهذه الصنعة واطلعهُ على امرهِ . فقال لهُ الساحر اذهب الى بيتك ونم وهي تأتي اليك عند منتصف الليل وعليك ان تترك النافذة الوسطى مفتوحة . فذهب الشاب ومن شدة اشتياقهِ لم ينم بل بقي منتظرًا قدوم محبوبتهِ ولكنهُ نسي فتح النافذة الوسطى . فعند انتصاف الليل احسَّ فاذا بشيءٍ لطم النافذة فكسَّر زجاجها ووقع على صحن الدار اذ كانت غرفتهُ عليَّة فنزل ليرى ماذا جرى فرأى البنت التي يهواها مخدشة الرأس والوجه تتخبط بدمائها . فللحال ذهب الى الساحر واعلمهُ بالامر فحينئذٍ اعطاهُ الساحر ورقة وامرهُ ان يضعها في فمها ففعل وللحال طارت كما جاءت راجعة الى بيتها . وفي اليوم التالي رآها اهلها وسألوها السبب فلم تجب بكلمة ولم تفتح فاها بل كانت تذهب وتجيء كأنها سالمة واخبر اهلها بعض الشيوخ وبعد الفحص حكموا انها مسحورة . ففتحوا فاها واخرجوا الورقة منهُ وفي تلك الدقيقة وقعت على الارض مائتة . فما قولكم في تعليل هذه الحادثة

ج انَّا لا نصدقها بل نعتقد انها موضوعة وليس في البشر قوة فائقة الطبيعة فاذا استطاع احد الناس ان يفعل فعلاً مناقضًا للنواميس الطبيعيَّة او مخالفًا لها كما فعل هذا الساحر وجب ان نتثبَّت اولاً من ان ما نسب اليهِ من الفعل قد حدث حقيقة فاذا وجدنا انهُ حدث حقيقةً فيكون قد حدث بقوة طبيعيَّة لم نكن نعرفها فنبحث عنها وعن الاسباب التي تجعلها خاصَّة بالساحر دون غيرهِ . ولم نبحث حتى الآن عن عمل من الاعمال المنسوبة الى السحرة ورأيناهُ

صحيحاً ولا علمنا ان احداً بحث بحثاً مدققاً عن اعمال السحرة ووجد انها صحيحة ٠ وقد كتبنا فصولاً مسهبة في فساد السحر في السنين الاولى من المقتطف فعليكم بمراجعتها ٠ ولا تنسوا ان افضل مقياس تُعرَف بهِ صحة الدعاوي هو استعمالها والانتفاع بها فلو كانت دعاوي السحرة صحيحة لاستعملها الناس وانتفعوا بها كما يستعملون الطب والصناعات المختلفة ٠ افرضوا ان الساحر الذي اشرتم اليهِ قدر حقيقة على سحر هذه الابنة وجعلها تذهب ليلاً الى بيت رجل وتلقي نفسها من نافذة بيتهِ فما كان يمنعهُ من جعل قوَّاد اليابان يلقون انفسهم في البحر حينما كانت الحرب ناشبة بين الروس واليابان فيستتب الفوز للروس او ما يمنعهُ من جعل ابنة احد كبار الاغنياء تهواهُ وتأتيهِ بثروة ابيها ٠ وانتم تعلمون ان السحرة اي مدعي السحر من افقر الناس فلو كان فيهم قوة سحرية كما يزعمون لاستفادوا منها واغتنوا وعاشوا بالراحة والرفاهة

(٢) المندل

ومنهُ ٠ هل المندل صحيح وكيف تعللون هذه الحادثة

سرق لنسيب لي شيء وضع عندهُ امانة واذ لم يهتدِ اليهِ ذهب الى ضارب مندل فاحضر هذا ابنة لا تتجاوز الثانية عشرة من عمرها واحضر طستاً مملوءاً ماء وامر البنت ان تنظر في الماء ثم امرها ان تعزم الملك الاحمر ففعلت فاتى الملك الاحمر ومعهُ رجالهُ وكلهم بهيآت غريبة . وبعد انصراف الملك امرها بان تسأل احدهم عن سارق ذلك الشيء وان يأتي بهِ فذهب وبعد قليل رجع ومعهُ الرجل السارق ووصفت ملامحهُ فعرفهُ نسيبي ٠ ثم امرها ان تسأل عن موضع السرقة وان يذهب معها ويريها اياها ٠ فاحست البنيَّة انها ماشية في اسواق المدينة وصارت تذكر اسماء الشوارع التي مرت بها الى ان انتهت الى بيت فذكرت اسم صاحبهِ ودخلت معهُ فاراها الشيء المسروق واين هو موضوع ٠ فعندئذٍ ذهب نسيبي الى البيت الذي وصفتهُ البنت فشاهد المسروق في نفس المحل الذي وصفتهُ . فما قولكم في هذا ايضاً

ج لقد سمعنا قصصاً كثيرة مثل هذه ولكننا لم نرَ احداً حتى الآن استرجع بواسطة المندل شيئاً سُرق لهُ . والقصة التي اخبركم بها نسيبكم مخالفة للنواميس المعروفة ولا نتردد في الحكم انها غير صحيحة او ان الصحيح منها غير ما ذكرتم ولو كانت صحيحة كلها لاستخدم المندل في اكتشاف السرقات كلها واغتنى صاحب المندل من هذه الصناعة في اسبوع واحد وان قيل كيف يروي الناس روايات كاذبة مثل هذه قلنا ان بعض الناس يسهل عليهم ان يخدعوا غيرهم بمثل هذه الاكاذيب فيختلقونها لكي يخدعوا بها غيرهم او لكي يسلُّوهم وبعضهم يتوهم امراً ثم يصدق وهمهُ

كأنهُ من الحوادث الواقعة · قلنا انهُ ان كان في القصة المتقدمة شيء من الصحة فيكون غير ما ذكرتم ونحن نريد بذلك انهُ قد يصيب الابنة الناظرة الى الطست شيء من الذهول كما يصيب من ينام النوم المغنطيسي فتصير تتوهم انها ترى ما يذكرهُ لها منومها كأنها تحلم حلماً فاذا كان ضارب المندل عارفاً بالسارق والمسروق فقد يستطيع ان يهدي الابنة اليهِ باسئلتهِ لها · واذا كان كلامها وكلامهُ مبهماً وكان صاحب السرقة معتقداً ان السارق فلان فلا يبعد ان يطبّق كلامها المبهم على ما هو راسخ في نفسهِ فيراهُ منطبقاً عليهِ واذا صدقت في حادثة من مئة حادثة ذكر الناس هذه الحادثة ونسوا التسع والتسعين

(٣) اختلاف الوقت

فوه · حسن افندي حسن الملاحة · لقد بحثت مع كثيرين من المشتغلين بعلم الهيئة في تحديد الوقت بين بلدين طولها وعرضهما معروف معلوم بطرق سهلة فلم نتوفق الى طريقة عامة لذلك الموضوع · وقد رأينا بعد طول البحث ان نرسل الى جنابكم سؤالاً آملين ان تتكرموا بحلهِ وبتعيين الطريقة الحسابية العامة لحل امثالهِ وهو: عرض القاهرة ٠٤٠ ٢َ ٣٠ْ وطولها · والوقت ١١ ساعة و٥٠ دقيقة قبل الظهر فكم تكون الساعة في المدينة المنورة وعرضها ١٥َ ٢٤ْ وطولها ٣٩َ ٨ْ

ج ان المسألة بسيطة جدًّا ولا داعي لتعيين العرض فيها · وطريقتها ان تستعلموا فرق الطول بين المكانين فيكون الفرق في الوقت دقيقة واحدة لكل ١٥ دقيقة من الطول او ساعة لكل ١٥ درجة · وفرق الطول بين القاهرة والمدينة ٥١٩ دقيقة من القوس فهي تعدل ٣٤ دقيقة من الساعة و٣٦ ثانية وعليهِ يكون الوقت في المدينة المنورة حينئذٍ بعد الظهر باربع وعشرين دقيقة و ٣٦ ثانية

(٤) شركة إسوكرتاه

الاقصر · م · ر لقد سوكرت حياتي على مبلغ ٥٠٠ جنيه عشرين سنة في شركة جريشام وانا ادفع اليها الآن ٦٢٣ غرشاً كل ثلاثة اشهر فما هو المبلغ الذي يعطى لي بعد مضي العشرين سنة واذا توفيت حينئذٍ فهل يعطى ورثتي المبلغ المؤمَّن عليهِ مع الارباح وكم هي وهل تستحسنون عمل هذه الشركة وهل هي مأمونة

ج ان الارباح التي تعطى لكم او لورثتكم تتوقف على شروطكم مع الشركة · والشركة التي ذكرتموها مأمونة ومن احسن الشركات وشروطها عمومية مطبوعة · ونحن نستحسن مبدأ شركات التأمين لان الغرض منها جمع المال من الذين يعيشون عمراً طويلاً واعطاؤهُ لورثة الذين يموتون باكراً كما ان غرض شركات سوكرته الحريق جمع المال

من الذين لا يحترق ما يسوكرونهُ واعطاؤُهُ للذين يحترق ما يسوكرونهُ

(٥) سقوط ثمر المنجو

الموده · حنا افندي عبد الملك · ما السبب في سقوط طرح اشجار المنجه قبل دور استوائها وما هي الواسطة لحفظها

ج ان اسباب سقوط الثمر عن الشجر قبل نضجهِ مختلفة فقد تكون ضعف الشجر وقد تكون كثرة حملهِ وقد تكون حشرات تضرب عروقهُ وقد تكون تعرُّض الشجر للرياح الشديدة والغالب انكم تجدون سقوط الثمر عندكم ناتجاً عن سبب او اكثر من هذه الاسباب

(٦) جنين البيضة

مسيسبي باميركا · الخواجه داود سليمان ابو حيدر · جاء في الجزء الثامن من المقتطف هذه السنة في الكلام على الوراثة ان جنين الطائر يتكون في البيضة فنرجو الافادة هل يتكون الجنين من صفار البيضة او من بياضها او منهما كليهما

ج يبتدئُ تكونهُ من نقطة بيضاء في الصفار · اكسروا بيضة جديدة في صحفة فتروا صفارها يعوم عليها ويكون فيهِ نقطة بيضاء اصغر من حبة العدس وهي الجرثومة التي يتولَّد الفرخ منها ثم تدخل بقية البيضة صفارها وزلالها في تركيب جسمهِ

باب الاخبار العلمية

مجمع تقدم العلوم البريطاني

التأَم مجمع تقدُّم العلوم البريطاني في مدينة دبلن في الثاني من سبتمبر برئاسة الاستاذ فرنسيس داروِن بن داروِن الشهير فخطب خطبة الرئاسة في دار جامعة ارلندا الملكية وقد نشرنا خلاصتها في هذا الجزء ثم خطب رؤساء الاقسام المختلفة في مواضيع اقسامهم وبلغ عدد الحضور ٢٢٧٠

مؤْتمر تاريخ الاديان

التأَم مؤتمر تاريخ الاديان في اكسفود بين ١٥ و ١٨ سبتمبر برئاسة السر الفرد ليل وتليت فيهِ مقالات كثيرة في تاريخ الاديان المختلفة كاديان الشعوب المنحطة واديان الصينيين واليابانيين والمصريين والساميين والهنود واليونان والرومان والالمان والديانة المسيحية · وسنأْتي على تفصيل ذلك في الجزء التالي

مؤتمر السل

يلتئم مؤتمر السل الدولي العام في مدينة وشنطون باميركا بين ٢١ سبتمبر و ١٢ اكتوبر برئاسة رئيس الولايات المتحدة

هنري بكرل

خسرت فرنسا والعلم عموماً خسارة كبيرة بوفاة الاستاذ هنري بكرل العالم الطبيعي المشهور . وهو من بيت علم وفضل فان جدهُ انطوان بكرل كان من اشهر علماء الكهربائية في عصرهِ . واباهُ كان من مشاهير علماء الطبيعة ايضاً

وهنري بكرل المتوفى الآن ولد في اواخر سنة ١٨٥٢ ولما توفي جدهُ سنة ١٨٧٨ اخلفهُ ابوهُ وجعل هو مساعداً لهُ ومن اول اشغالهِ اكتشاف الاستقطاب المغنطيسي وقد اكتشف دوران سطح استقطاب النور بواسطة مغنطيسيَّة الارض سنة ١٨٧٨ وبحث عن حرارة باطن الارض وخواص الكوبلت والنكل المغنطيسية وحقق مقدار خواص الاوزون المغنطيسية ثم التفت الى موضوع الفصفورية الذي اشتغل بهِ ابوهُ سنين كثيرة وهو اول من نشر شيئاً عن اشعة المواد الفصفورية الذي افضى الى اكتشاف الراديوم وقد اكتشف هذه الاشعة اولاً في الاورانيوم ثم اكتشف انها تفعل فعل اشعة رنتجن وتؤثر بدليل الكهربائية فسميت اشعة بكرل

وسنة ١٨٩٨ رأَت مدام كوري ان الثوريوم من العناصر المشعَّة فجعلت تبحث هي وزوجها في غيرهِ من العناصر فوجدت ان قوة الاشعاع توجد في غير الاورانيوم اشد ممَّا توجد فيهِ وتوصلت بعد بحث طويل دقيق الى اكتشاف الراديوم وثبت حينئذٍ ان اشعة بكرل موجودة في عناصر اخرى غير الاورانيوم الذي بحث بكرل فيهِ اولاً واستمرَّ على البحث فرأَى ان هذه الاشعة على ثلاثة انواع والَّف سنة ١٩٠٣ كتاباً كبيراً في هذا الموضوع جمع فيهِ خلاصة مباحثهِ فلهُ الفضل الاكبر في انهُ اكتشف خاصَّة جديدة من خواص المادة وفتح باباً جديداً للبحث فيها وقد اعطي جائزة نوبل هو ومدام كوري وزوجها سنة ١٩٠٣ ومنح كثيراً من النياشين العلمية

وكانت وفاتهُ في الخامس والعشرين من اغسطس الماضي عن ٥٦ سنة وقد ترك مئة الف فرنك لاكادمية العلوم تذكاراً لابيهِ وجدهِ

طيارة الاخوين ريت

لا يزال المستر ولبور ريت يطير بطيارتهِ في فرنسا واما اخوهُ اورڤل ريت فكان طائراً بطيارتهِ في اميركا في ١٧ سبتمبر ومعهُ ضابط اسمهُ سلفردج فانكسرت شفرة من شفار المروحة (الرفاص) التي تدفع الطيارة

بحركتها فاختلَّت موازنة الطيارة وسقطت بهما فقتل الضابط وكسرت فخذ المستر ريت

رحلة سفن هدن

بعث الدكتور سفن هدن الى جريدة التيمس تفصيل رحلتهِ الاخيرة الى تبت. وخلاصتها انهُ اكتشف منابع البراهما بوترا ونهر السند ونهر ستلج. واكتشف ان الجبال التي هناك متصلة في سلسلة واحدة وهي اكبر سلاسل الجبال في الدنيا. ومتوسط ارتفاعها اعلى من متوسط ارتفاع جبال حمالايا فان ارفع قنن جبال حمالايا اعلى من ارفع قنن هذه الجبال نحو ٤٠٠٠ او ٥٠٠٠ قدم ولكن منخفضات هذه الجبال ارفع من منخفضات جبال حمالايا. وهي قرعاء لا شجر فيها ولا انجم

ذبح الحيوانات

رأى البعض ان ذبح الحيوانات التي يؤكل لحمها يؤلمها واذا كان لا بدَّ من ذبحها فالشفقة تقتضي ان تذبح على اسلوب لا يؤلمها وعيَّنوا الجوائز لمن يستنبط طريقة لقتل الحيوانات من غير الم. فاعتمدت المانيا على قتل الحيوانات الكبيرة برصاصة تطلق عليها من فرد فتميتها حالاً من غير الم والفرنسويون على مسمار يربط على رأس الحيوان ويضرب بمطرقة فيخرق رأسهُ الى الدماغ ويميت الحيوان في لحظة من غير الم والاسبانيون على قطع الحبل الشوكي برمح او خنجر. وغيرهم على غير ذلك من الوسائل لكي لا يتألم الحيوان حين قتلهِ

السليت Cellit

لا يخفى ان السلولويد يشبه العاج ويمكن تلوينهُ بالوان مختلفة وهو يسبك ويخرط ويلوى ويفعل بهِ كل ما يراد وعيبهُ الوحيد انهُ يشتعل ويلتهب بسرعة وقد حاول كثيرون عمل سلولويد لا يشتعل فنجحوا ولكن السلولويد الذي صنعوهُ لا يذوب الاَّ في الكلوروفورم فعملهُ مضر بصحة العمال والآن اكتشف نوع من السلولويد يذوب في الكافور وفي الاثير الخليك وغيرهما من المذوبات التي لا تضر بصحة العمال وهو شفاف تماماً لين كالجلد لا ينقصف ولا يؤثر فيهِ الماء ولكن مزيتهُ الكبرى انهُ لا يشتعل. وقد أُطلق عليهِ اسم السليت ففيهِ كل مزايا الزجاج والجلاتين والسلولويد والجلد والصمغ الهندي وهو المادة الوحيدة الجامعة بين شفافية الزجاج وليونة الجلد. وقد شرع الصناع يصنعون منهُ مواد كثيرة جداً

نسف الالغام عن بعد

يقال ان تلميذاً في مدرسة بطرس برج الكهربائية الصناعية اكتشف طريقة لنسف الالغام بالكهربائية من غير سلك ولتسيير الطرابيد ونسفها ايضاً فاذا صح ذلك تغير نظام الحروب البحرية

فهرس الجزء العاشر من المجلد الثالث والثلاثين

٨٠٩ سكة الحجاز (مصوَّرة)
٨١٣ الثورة العثمانية
٨١٧ المجتمع الروماني زمن القياصرة . لصموئيل افندي بني
٨٢٤ الراهن والواهن في المادية . لانيس افندي الخوري
٨٣٢ تجارة مصر منذ مئة عام
٨٣٦ اختراق افريقية
٨٤٣ معجم الحيوان (مصوَّرة) . للدكتور امين معلوف
٨٤٨ السوربون في زمن الفتح
٨٥٠ الطيران والمراكب الطيارة
٨٥٥ طيارة ربت وسهولة الطيران
٨٥٧ حركات النبات
٨٦٣ اسباب الاحتلال البريطاني

٨٦٧ باب التقريظ والانتقاد * جغرافية الشريف الادريسي
٨٧٦ باب المراسلة والمناظرة * عبرة وذكرى . كتاب المصابيح . ما الذي اتي بهِ دارون
٨٨٠ باب الزراعة * الزراعة المصرية . الري في العراق (مصوَّرة)
٨٠٩ باب المسائل * حقيقة السحر . المندل . اختلاف الوقت . شركة السوكرتاه . سقوط ثمر المنجو . جنين البيضة
٨٩٣ باب الاخبار العلمية * وفيهِ ٩ نبذ

رواية فتاة الفيوم ملحقة بالمقتطف